

Gaylord

PAMPHLET BINDER

Syracuse, N. Y.  
Stockton, Calif.

Columbia University  
in the City of New York

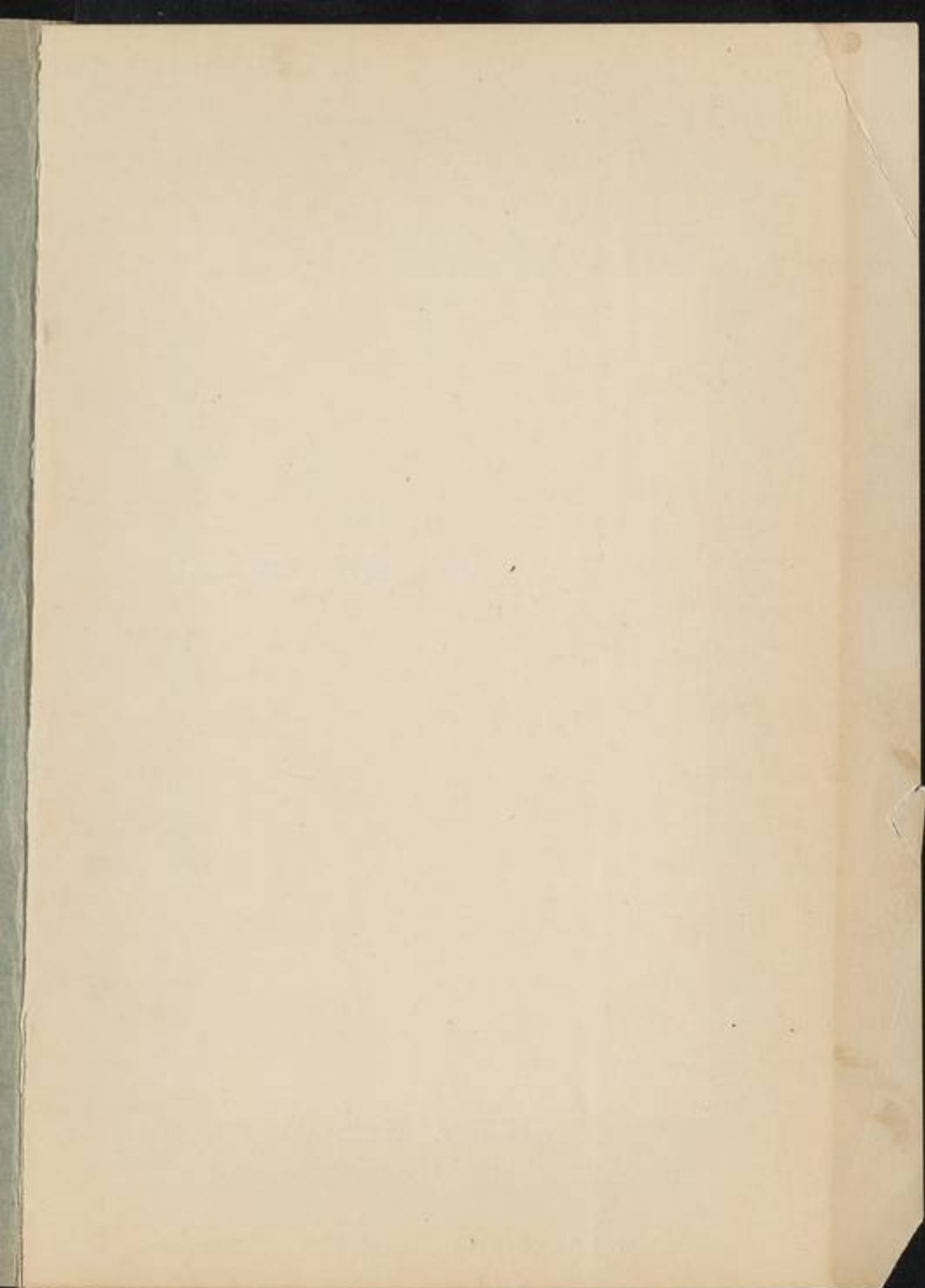
THE LIBRARIES



DATE DUE

SEP 30 2015

MAY 06 2016



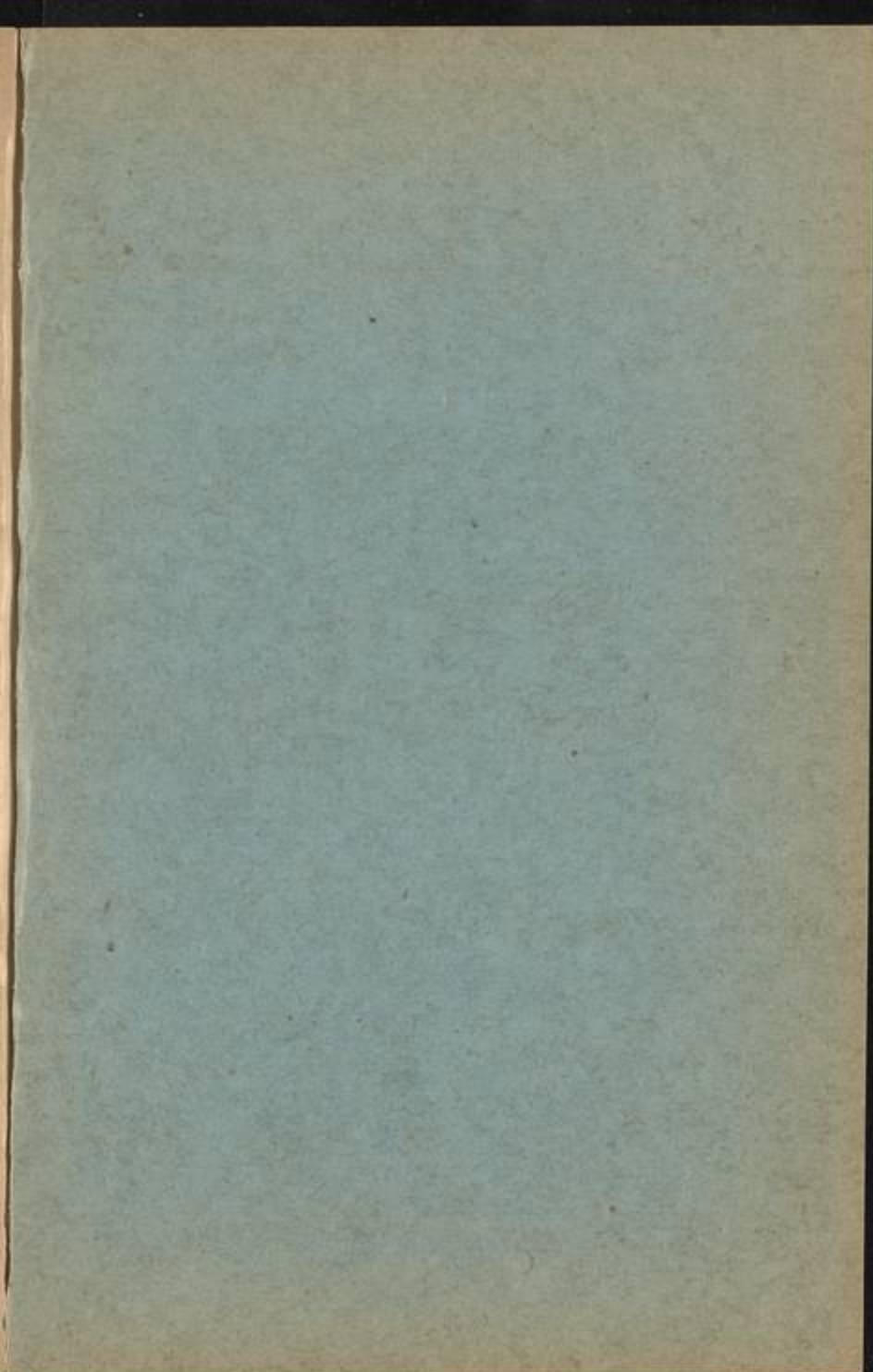
٥  
توفيق الحكيم

يَوْمِيَّانَا فِي الْأَرْيَافِ

الناشر: مكتبة الآداب بالجاميز ت: ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٦ سكة الشارحة بالعلمية الجديدة



توفيق الحكيم

يَوْمٌ مَيَّانًا فِي الْأَرْيَافِ

الناشر: مكتبة الآداب بالجاميز ت: ٤٢٧٧٧

---

المطبعة النموذجية

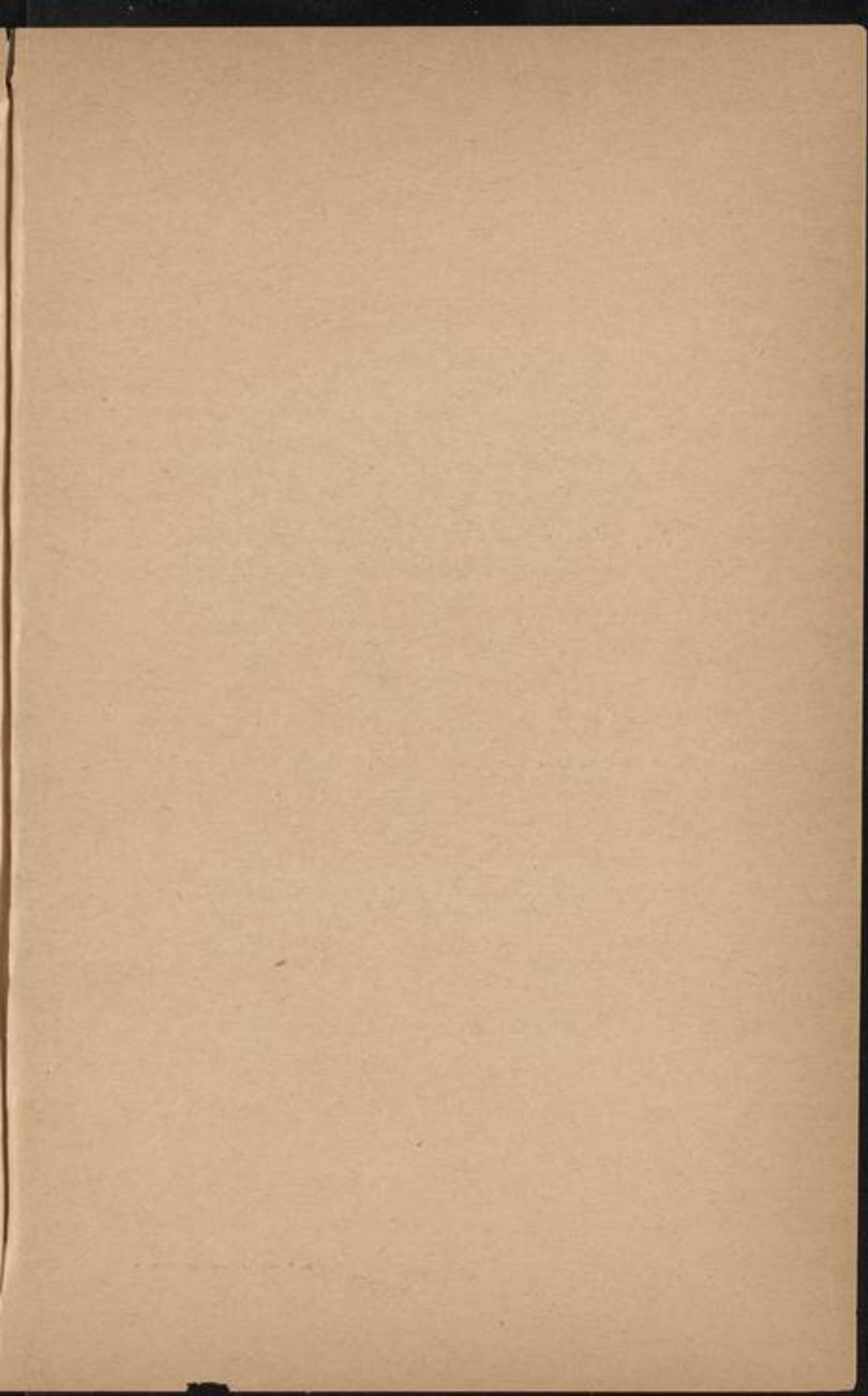
٦، سكة السابريين بالقاهرة الجديدة

893.7H127

Z4



لماذا أدون حياتي في يوميات! ألأنها حياة هنيئة؟  
كلا! إن صاحب الحياة الهنيئة لا يدونها ، إنما يحياها .  
لأنني أعيش مع الجريمة في أصفاد واحدة . لأنها رفيتي  
وزوجي أطلع وجهها في كل يوم ، ولا أستطيع أن  
أحادثها على انفراد . هنا في هذه اليوميات أملك  
الكلام عنها ، وعن نفسي ، وعن الكائنات جميعاً . أيتها  
الصفحات التي لن تذمر ! ما أنت إلا نافذة مفتوحة  
أطلق منها حربي في ساعات الضيق ! . .



## كتب للمؤلف

## نشرت في اللغة العربية

- |  |   |                        |
|--|---|------------------------|
| الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)           | } | محمد                   |
| الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٣٦)                      |   |                        |
| الطبعة الأولى : (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤)                     | } | شهرزاد                 |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)                       |   |                        |
| الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)                  |   |                        |
| الطبعة الأولى : (مطبعة مصر عام ١٩٣٣)                           | } | أهل الكهف              |
| الطبعة الثانية : (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣)                     |   |                        |
| الطبعة الثالثة : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠) |   |                        |
| الطبعة الرابعة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)                       |   |                        |
| الطبعة الخامسة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٨)                  |   |                        |
| الطبعة السادسة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٣)                  |   |                        |
| الطبعة الأولى : (مطبعة الرضاب عام ١٩٣٣)                        | } | عودة الروح<br>في جزئين |
| الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٤٦)                      |   |                        |
| الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)  | } | تحت شمس الفكر          |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)                       |   |                        |
| الطبعة الثالثة : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)                      |   |                        |
| الطبعة الرابعة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٤)                  |   |                        |
| الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)  | } | تاريخ حياة معدة        |
| الطبعة الثانية : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)                      |   |                        |

## تابع الكتب التي نشرت في اللغة العربية

- |   |   |                       |
|---|---|-----------------------|
| الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)   | } | عهد الشيطان           |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)  |   |                       |
| (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩)   | } | براكسا أو مفككة اللحم |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩)   |   |                       |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠)  | } | راقصة المعبد          |
| (مطبعة مصر عام ١٩٤٠)  |   |                       |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠)   | } | نشيد الإنشاد          |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)  |   |                       |
| الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)   |   |                       |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)   | } | حمار الحكيم           |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)  |   |                       |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)   | } | سلطان الظلام          |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)  |   |                       |
| (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)   | } | من البرج العاجي       |
| (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)   |   |                       |
| (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)   | } | تحت المصباح الأخضر    |
| (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)   |   |                       |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)   | ] | أهل الفن              |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)  |   |                       |
| المجلد الأول : ويشمل قصص : سر المنتحرة ، نهر الجنون ، رصاصة في القلب ، جنسنا اللطيف (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)                               | } | بجماليون              |
| المجلد الثاني : ويشمل قصص الخروج من الجنة أو المهمة ، أمام شباك التذاكر ، الزمار ، حياة محطمت (مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦)             |   |                       |
| المجلد الثاني : ويشمل قصص الخروج من الجنة أو المهمة ، أمام شباك التذاكر ، الزمار ، حياة محطمت (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧) | } | مسرحيات               |
| المجلد الثاني : ويشمل قصص الخروج من الجنة أو المهمة ، أمام شباك التذاكر ، الزمار ، حياة محطمت (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧) |   |                       |
| المجلد الثاني : ويشمل قصص الخروج من الجنة أو المهمة ، أمام شباك التذاكر ، الزمار ، حياة محطمت (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧) | ] | القصر المسحور         |
| المجلد الثاني : ويشمل قصص الخروج من الجنة أو المهمة ، أمام شباك التذاكر ، الزمار ، حياة محطمت (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧) |   |                       |
| المجلد الثاني : ويشمل قصص الخروج من الجنة أو المهمة ، أمام شباك التذاكر ، الزمار ، حياة محطمت (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧) | } | مسرحيات               |
| المجلد الثاني : ويشمل قصص الخروج من الجنة أو المهمة ، أمام شباك التذاكر ، الزمار ، حياة محطمت (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧) |   |                       |

## تابع الكتب التي نشرت في اللغة العربية

- |  |                             |
|--|-----------------------------|
| الطبعة الأولى : ( مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر<br>عام ١٩٣٧ )                                   | } يوميات نائب<br>في الأرياف |
| الطبعة الثانية : لحساب وزارة المعارف العمومية<br>( مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر عام ١٩٣٧ ) |                             |
| الطبعة الثالثة : ( طبعة مدرسية ) ( النموذجية ١٩٤٩ )  |                             |
| الطبعة الرابعة : ( النموذجية ١٩٥٣ )  |                             |
| الطبعة الخامسة : ( مدرسية ) ( النموذجية ١٩٥٤ )   |                             |
| الطبعة الأولى : ( مطبعة لجنة التأليف والترجمة<br>والنشر عام ١٩٣٨ )                                   | عصفور من<br>الشرق           |
| الطبعة الثانية : ( مطبعة التوكل عام ١٩٤١ )   |                             |
| الطبعة الثالثة : ( مطبعة التوكل عام ١٩٤٣ )   |                             |
| الطبعة الرابعة : ( المطبعة النموذجية عام ١٩٥١ )  |                             |
| الطبعة الأولى : ( مطبعة التوكل عام ١٩٤٣ )  | ) سليمان الحكيم             |
| الطبعة الثانية : ( المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩ )  |                             |
| الطبعة الأولى : ( مطبعة التوكل عام ١٩٤٣ )  | ) زهرة العمر                |
| الطبعة الثانية : ( مطبعة التوكل عام ١٩٤٤ )   |                             |
| ( مطبعة التوكل عام ١٩٤٤ )  | رصاصه في القلب              |
| ( مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٤ )   | لرباط المقدس                |
| ( مطبعة المعارف عام ١٩٤٥ )   | جماري قال لي                |
| ( مطبعة التوكل عام ١٩٤٥ )  | شجرة الحكم                  |
| ( المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩ )   | الملك أوديب                 |
| المجموعة الأولى والثانية ( مطبعة دار سعد مصر ١٩٤٩ )  | تسلسل توفيق الحكيم          |
| ( المطبعة النموذجية عام ١٩٥٠ )   | مشرح المجتمع                |
| ( المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢ )   | فن الأدب                    |
| ( مطبعة المعارف عام ١٩٥٣ )   | ذكريات الفن والقضاء         |
| ( المطبعة النموذجية عام ١٩٥٤ )   | أرني الله                   |

## كتب للمؤلف

## نشرت في لغة أجنبية

ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج  
ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية . في دار نشر نوفيل  
ايديسيون لاتين وترجم الى الإنجليزية ونشرت  
مختارات منه في دار النشر (بيلوت) بلندن ثم في دار  
النشر (كراون) بنيويورك . في عام ١٩٤٥

شهرزاد

ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٣٥  
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل  
للنشر . وبالإنجليزية ونشرت مختارات منه في لندن عام ١٩٤٢

عودة الروح

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفي عام  
١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر باللغة العبرية عام ١٩٤٥  
وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في ( دار هارمل ) للنشر  
بلندن عام ١٩٤٧ وترجم إلى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨

يوميات نائب  
في الأرياف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي  
لجاستون فييت الأستاذ بالسكوليج دي فرنس ثم ترجم  
الى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥

أهل الكهف

عصفور من الشرق ) ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

## تابع الكتب التي نشرت باللغة الأجنبية

١٥٠٠	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام	:	بجماليون
١٩٥٠	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام	:	أوديب
»	»	:	سليمان الحكيم
»	»	:	نهر الجنون
»	»	:	عرف كيف يموت
»	»	:	المخرج
»	»	:	بيت الحمل
»	»	:	الزمار

( وفي مجلد بعنوان مسرحيات عربية عن دار نشر « نوفل ايديسيون لافين بباريس » )





١١ أكتوبر سنة . . .

أويت إلى فراشي البارحة مبكراً؛ فلقد شعرت بالتهاب الحلق،  
وهو مرض يزورني الآن من حين إلى حين . فعصبت على رقبتي خرقة  
من الصوف، وعمرت من الجبن العتيق مصيد الفيران الثلاث،  
ونصبتها حول سريري كما تنصب الألغام الواقية حول سفينة من  
سفن الصليب الأحمر، واطفأت مصباح النفط، وأغمضت عيني  
وأنا أسأل الله أن ينيم الغرائز البشرية في هذا «المركز» بضع  
ساعات، فلا تحدث جناية تستوجب قيامي ليلاً وأنا على هذه الحال.  
فلم أكد أضع رأسي على المخدة حتى كنت حجراً ملقى، إلى أن  
حركني صوت الحفير يضرب الباب ضرباً شديداً، وينادي خادمي  
صائحاً «اصح يادسوقي!»، فعلبت أن جناية وقعت، وأن الغرائز  
لم تنم لأنني أردت أنا أن أنام . فهضت لوقتي وأشعلت المصباح،  
ودخل على خادمي يفرك عينيه بيد، ويقدم إلى بالآخري (إشارة  
تليفونية) فأدنت الورقة من الضوء وقرأت: «الليلة الساعة ٨  
مساءً، بينما كان المدعو قمر الدولة علوان ماشياً على الجسر بالقرب  
من «داير» الناحية أطلق عليه عيار ناري من زراعة قصب،  
والفاعل مجهول، وبسؤال المصاب لم يعط منطقاً، وحالته سيئة،  
«لزم الإخطار»  
«العمدة»

فقلت في نفسي : لا بأس ، تلك حادثة بسيطة تستغرق منى على  
الأكثر ساعتين ، فالضارب مجهول ، والمضروب لا يتكلم ولا يثرثر ،  
والشهود ولا ريب الخفير النظامى الذى سمع صوت العيار فذهب  
إليه خائفاً متباطئاً ؛ فلم يجد بالطبع أحداً بانتظاره غير الجثة الطريحة ،  
والعمدة الذى سيزعم لى حالفاً بالطلاق أن الجانى ليس من أهل  
الناحية ، ثم أهل المجنى عليه الذين سيكتمون عنى كل شىء ليثأروا  
لأنفسهم بأيديهم . فسألت خادمى عن الساعة وكتبت فى ذيل الورقة .  
« وردت الساعة العاشرة . وقائمون لضبط الواقعة ، وقت من فورى  
إلى ثيابى فارتديتها على عجل ، كما يصنع رجال المطافىء ، وأرسلت  
فى طلب كاتب التحقيق وسيارة النيابة ، وأفدت من يوقظ  
مساعدى الجديد وهو شاب رقيق الحاشية ، حديث عهد بالعمل ،  
كان قد أوصانى أن استصحبه فى الوقائع ليكتسب الخبرة والمران .  
ولم ألبث أن سمعت بيبان بوق سيارة المركز « البوكس فورد » بها  
المأمور ، ومعاون الإدارة ، وبعض الجنود . فنزلت إليهم فوجدت  
كل شىء قد أعد ولا ينقصنا إلا كاتب التحقيق ، فلم أعجب . لأنى  
ما أبطأت يوماً فى القيام إلى واقعة إلا كان السبب كاتب التحقيق ،  
فى أى بلد كان ، وفى أى مركز والتفت إلى الخفير وقلت « أنت  
متأكد أنك ناديت سعيد أفندى ؟ » فسمعت فى الظلام صوت

الخذاء الضخم يضرب الأرض ، ولحمت يداً ترتفع بالتحية فوق  
( اللبدة ) الطويلة ذات الرقعة النحاسية ، وفقاً يتحرك تحت شارب  
أسود كبير كأنه ذنب القط : « لبس القميص قدامى بأعادة البك » .  
ورأينا أن نطلق بسياراتنا فنمر بمنزل الكاتب فنستصحبه . فركبت  
أنا ومساعدى والمأمور سيارة الثيابة حتى بلغنا منزلاً قديماً فى  
طرف البلدة فصاح الحفير وكان قد تعلق بسلم السيارة ليدلنا على  
الطريق « إنزل ياسعيد أفندى » فأطل الكاتب من نافذة قصبة  
وهو فى جلباب النوم « حادثة ؟ » فصاح الحفير . « حادثة ضرب  
نار » ، وما أشعر عندئذ إلا بيد المأمور قد خرجت من نافذة  
السيارة ونزلت على قفا الحفير . . . ياخفير يا ابن . . لبس القميص  
قدامك يا ابن ال . . . « وحياة رأس سعادة البك كان لابسه . .  
ولم أر ضرورة للتحقيق فى هذه المسألة ، فالأمر لا يخرج عن اثنتين :  
إما أن الحفير لا يعرف القميص من اللباس وهو شئ غير مستغرب ،  
وإما أن سعيد أفندى قد عاد نفلح قميصه ونام من جديد . وهو  
شئ أيضاً غير مستغرب . وما دمت أنا وحدى المسئول رسمياً عن  
التأخير ، فلا نفع إذن من صياحى مع سعيد أفندى غير تصديع  
رأسى ، وأنا أحوج الناس إلى الراحة الليلة ، وإلى توفير الجهد  
والكلام للقضية الحقيقية التى من أجلها نتجشم . ولم يلبث الفتور  
أن دب فى أعضائى ، فأسندت رأسى إلى ركن السيارة وقلت لمن

معى : محل الحادث على بعد ثلاثين كيلو متراً ، فلا بأس من أن  
أنعس مسافة الطريق ، وأغمضت عيني ، وتحركت سيارتنا وخلفها  
« البوكس فورد » وبه الكاتب والمعاون والباشجاويش والعساكر .  
وما كدنا نخرج إلى الطريق الزراعية حتى سمعنا صوت غناء في جوف  
الليل ، فأخرج المأمور رأسه من النافذة في الحال وصاح : يا حضرة  
المعاون ! نسيدنا الشيخ عصفور . ووقفت القافلة : وإذا الصوت يخرج  
واضحاً من دغل « بوص » على حافة غيط :

... ورمش عين الحبيبه يفرش على فدان ...

فأسرع معاون منادياً : « اطلع يا شيخ عصفور . حادثة ! »  
فظهر ذلك الرجل العجيب الذى يهيم على وجهه بالليل والنهار ،  
لا يعرف النوم ، يعنى عين الأغنية ، ويلفظ كلمات ، ويلقى بتنبؤات ،  
يصغى إليها الناس : ذلك الرجل الذى لا يفرحه شيء مثل خروجه  
إلى الحوادث مع النيابة والبوليس : فهو يسمع عن بعد بوق  
« البوكس فورد » ويتبعه أينما ذهب كالكلب الذى يتبع سيده إلى  
الصيد . لماذا كل هذا ؟ طالما سألت نفسى : ألا يكون لهذا الرجل  
سر . ودنا الرجل من « البوكس » قائلًا فى شبه احتجاج .

— كنتم طالعين من غيرى ... ؟

فأجابه الباشجاويش باسمًا :

— أبدأ ! لو كنا نعرف عنوانك لبلغناك الإشارة !

فقال الرجل :

— طيب هات سيجارة!

فغمزه الباشجاويش سريعاً وقال له في صوت خافض:

— اسكت، يسمعك البك المأمور.

فقال الشيخ عصفور:

— هات سيجارة يا حضرة الباشجاويش، لأنى أنا اللييلة

« باشخرمان »!

وصعد الرجل إلى « البوكس فورد » كأنه يصعد إلى « رولز رويس » بعد أن انتزع من الدغل عوداً أخضر حمله في يده كالصولجان وانطلقت السيارتان بين المزارع وقد نامت الطبيعة وسكنت الأصوات، إلا من نقيق الضفادع، وهفيف الحشرات، وتغريد الشيخ عصفور المتصاعد من جوف « البوكس ». وقد أغفيت أنا أيضاً إغفاءً التي اعتدتها كلما ركبت إلى واقعة، إغفاءة متقطعة لا تمنعني أحياناً من سماع ما يدور حولي من الكلام. وكان مساعدي إلى يساري متيقظاً يبدو عليه العجب ويريد أن يسأل عن كل شيء فيمنعه الخوف من إزعاجي. فالتفت إلى المأمور بجواره: وسرعان ما اشتبكا في حديث طويل لم أع منه شيئاً، فهو وحده الذى أنامى النوم العميق طول الطريق، وانتهت على وقوف السيارة بعد زمن ليس بالقصير، ففتحت عيني فإذا نحن أمام ترعة... وإذا ( المعدة ) في انتظارنا لتنتقلنا إلى الضفة الأخرى.

فنزلتنا جميعاً وامتلاً بنا القارب كأننا غرقى في زورق النجاة ،  
أو « أزيار » من الفخار في مركب بالصعيد وسارت بنا « المعديّة »  
حتى بلغت الشاطيء الآخر ونحن لانسمع فى سكون الليل العميق  
غير سلاسلها تضرب الماء ، ولا نرى من حلك الظلام شيئاً . ولم  
تكذب تطلأ أقدامنا البرحتى سمعنا صهيل خيل ؛ وإذا أمنا الركائب ،  
من خيول « نقطة البوليس » وحمير العمدة ، مهياًة لملنا إلى مكان  
الحادث . وآه من الخيول ! لقد تقدم إلى أحد الجنود بجواد مطهم  
إجلالاً لقدرى ورأيت هذا الحصان يتبختر ويفحص الأرض  
بحوافره ، ولا يصبر على الهدوء حتى أعتل ظهره ، فعلبت أنى لا محالة  
واقع على الأرض . ولطالما كدت أقع من فوق تلك الظهور الالعبه  
التي لا يحكمها غير فارس بارع . لاراكب نائم . ولطالما فضلت عليها  
الخمير الهادئة ؛ غير أنى نظرت خلفى فإذا أكبر القافلة قد امتطوا  
الخيول ولم تبق الخمير إلا للأوباش ؛ فنجلت أن أنزل عن جوادى  
وأن أحاذى فى المرتبة الشيخ عصفور ، وقد اعتلى حماراً أشهب  
وخزه بصوجلجانه الأخضر فانطلق به فى ذيل الجياد . أسلنت أمرى  
لله ، وسرت فى المقدمة قائداً مترنحاً من الخوف والتعب إلى أن ظفر  
النوم بجفونى فلم أشعر بشيء . ونجأة وجدت جسمى قد طار من  
فوق الجواد ووقع على عنقه ! فقد قفز الحصان فى قناة ماء قفزة  
شديدة خلعتنى من فوق ظهره خلعاً فقلت . « ما حسبتاه لقيناه ! »

وصحت بالخفير الملحق بركاني ، الحصان ياخفير الحصان ا ، فوقف  
الركب واختل النظام ، وأوسع المأمور رجاله شتموا صفعاً وأمر أونهاياً  
وأعادوني إلى ظهر جوادى وأنا أقول لأدارى خجلى . يظهر أن  
الحصان نام وهو ماش ، أوخاف من ثعلب فار فجمح . على كل  
حال امسك اللجام ياخفير . فأمسك خفير ان اللجام ومشيباني رويداً  
رويداً مشية هادئة متزنة أعادت إلى نفسى هجوعها فلم أصح إلا فى  
مكان الواقعة . . . وأبصرت ضوء المصابيح والمشاعل فى أيدى  
الاهالى المجتمعين حول المصاب فطار التعب من رأسى كما تطير  
البوم من وكرها على الضوء المقرب . وأسرعت فى النزول من  
فوق صهوة الجواد وشققت طريقاً بين الناس الذى هتفوا فى صوت  
خافت ، النيابة حضرت . . ودنوت من ذلك الجسم الممدد على  
الأرض ، وحدقت فى ذلك الوجه المعفر بالتراب والدم ، فعلمت  
أنه حقيقة لن يتكلم . وقد وجدت ملاحظ ، النقطة ، غارقاً لأذنيه  
فى تحرير ، محضره ، الذى سأضرب به عرض الحائط ، فالنيابة متى  
حضرت بحثت كل شىء من جديد . وباشرنا التحقيق مفتحين بمحضر  
المعاينة . فأمسك الكاتب ورقة وقلماً ودنامنى فأملت عليه الديباجة  
المعروفة ، نحن فلان وكيل النيابة ومعنا فلان كاتب التحقيق .  
الليلة الساعة كذا وردت إلينا الإشارة التليفونية رقم كذا ونصها  
كذا وعليه قمنا بسيارة إلى ناحية كذا ، فبلغناها ساعة افتتاح هذا  
(٢)

المحضر الخ الخ ، ذلك أنى أحب دائماً أن أعنى بتحرير « محضرى »  
وأن أجعله مرتباً ترتيباً منطقياً . والمحضر هو كل شىء فى نظر  
أولى الأمر . وهو وحده الشهادة الناطقة للنائب بالدقة والبراعة .  
أما ضبط الجانى فأمر لا يسأل عنه أحد . وبلى « الديباجة » وصف  
الإصابة والملابس والموضع الذى وجد فيه المحنى عليه . فما قصرنا .  
وأملت على الكتائب أوصاف ذلك الجرح النارى الذى رأينا ثقبه  
المتسع فى كنف المصاب . وقد حدث فيما أرى من « حشار » بندقية  
أطلقت على بعد غير كبير فهتكت اللحم وأنزفت الدم . وقد وصفنا  
الوجه خير وصف ، وهو لرجل قارب الأربعين وسيم قسم ، تلك  
الوسامة الريفية بما فيها من رجولة وصحة وقوة . ولم يفتنا ذكر وشم  
العصفور المرسوم فى أعلى صدغه . ولألون شاربه الضارب إلى  
الصفرة والنياب أحصيناها من « الدفة » ، والجلباب الغزلى وكبس  
النقود الذى لم يمس ، إلى السروال ، البفته ، الأبيض ذى التسكة  
الحمراء نعم لم ننس تسكة اللباس ونوع نسيجها ، فإن ذكر التفاصيل دليل  
على الدقة والعناية . هكذا تعلمنا التحقيق كابرأ عن كابر ! وأذكر  
أنى تركت ذات مرة جريحاً يعالج سكرات الموت ، وجعلت أصف  
سرواله وتسكته و « بلغته » و « لبدته » ، فلما فرغت انحنيت على  
المصاب أسأله عن المعتدى عليه ، فإذا بالمصاب قد توفى . ولم ننس  
وصف المسكان ، وهو طريق ضيق بين مزارع قصب على الجانبين .



ولا يعجب ، فإن لكل نوع من الزرع محصوله من الجراثيم : فمع ارتفاع الذرة والقصب يبدأ موسم ، القتل « بالعيار » ، ومع اصفرار القمح والشعير يظهر الحريق « بالجاز والقوالح » ، ومع اخضرار القطن يكثر « التقلع والإتلاف » ، واتهينا من الجريح المحتضر ، ولم يعد يهمننا أمره بعد أن ملأنا « محضرا » بأوصافه ؛ فتركناه في دمه تحت رعاية ضابط « النقطة » حتى يأتي لحمله إلى المستشفى رجال الأسعاف . وذهبنا إلى « دوار » العمدة حيث كانت في انتظارنا القهوة . وآه من « القهوة » العمدة ! إنى أسميها دائماً « الكلوروفورم » ، فما من مرة إلا أحدثت عندي عكس المقصود من شربها ! ولست أدري العلة ، غير أنى سمعت ذات ليلة عمدة من هؤلاء العمد يصبح في تابعه أمامنا . « هات يا ولد قهوة بن » ، ولم أفهم وقتذاك معنى لإضافة لفظ « البن » إلى « القهوة » ؟ أتري النص على البن « صراحة » جاء من قبيل التأكيد ، أم على سبيل التشريف والتكريم ؟ لست أعلم ، إنما الذى علمته يومئذ واستوثقت منه أن هذا « اللفظ » الأخير وإن دخل في تركيب الجملة ، لم يدخل في تركيب القهوة وجلسنا فى « المنظرة » على فرش من قטיפه ذهب وبرها ولونها ، ووضع الكاتب أوراقه على خوان أعرج ، تعلوه رخامة مكسورة ، ونشر المحضر « تحت » مصباح كبير له دوى وطنين قد جمع حوله هوام الليل ، وصحت أطلب الشهود . فصاح

المأمور لصياحي . « أجمع الشهود يا حضرة المعاون » . وارتقى على مقعد رحب في ركن الحجر ارتقاء أدركت معها أن ليس بعدها غير نعاس و غطيط ، وجلس مساعدى على مقربة منى يرمق مايجرى بعيون فاترة تتم عن كسل بدأ يداعبها مداعبة النسيم للأوراق . وجاءونى بالحفير النظامى الذى سمع صوت العيار وهرع إلى مكان الجريمة أول من هرع . فلم يخيب ظنى فى شىء إلا فى قوله إنه سمع عيارين ، مع أن الوارد فى « الإشارة » عيار واحد ، والأصابة من عيار واحد ، وأقوال الحاضرين متفقة على أنه لم يدو فى القرية سوى عيار واحد . لاحظ هذا الرجل من الكذب ؟ لست أدرى ، وتركنا جوهر القضية وانصرفنا إلى مسألة العيار والعيارين . فسألنا الجميع من جديد فأجابوا بجمعين عياراً واحداً يساعد البك .

— سمعت يا خفير . . .

— عيارين يساعد البك .

— متأكد ؟

— عيارين يساعد البك .

هنا ثقل التحقيق وسماجة المهنة . أفهم أن يكذب المتهم ، فهو حقه الطبيعى ؛ وما أطمع قط أن يصدقنى متهم ولكن الشاهد ، ماذا يحمله على أن يلتقى على وجه الحفيفة كلفاً من التشكيك والتناقض ، لوجه الله تعالى . ؟

ومضى التحقيق في شعاب مظلمة لا أمل معها في الوصول إلى شيء. فما من أحد يعرف الجاني؛ وما من أحديهم أحداً وما من أهل للمضروب في هذا البلد غير أم عجوز مريضة كسيحة ضعيفة البصر لا تستطيع الكلام، وغير زوجة ماتت منذ عامين وتركت طفلاً صغيراً لا يصلح للوقوف أمامنا في موقف السؤال: وما من أحد يعرف أن بين المصاب وبين إنسان على وجه البسيطة عداوة أدت إلى ارتكاب الجريمة. أهبط إذن شيطان من الجحيم فأطاق على الرجل العيار؟ لأحد يدري. لقد وجدت ما حسبت إنني منذ قرأت الإشارة، أدركت أن القضية ممتة. وهل أستطيع أنا «بتحقيقي» أن أبعث الحياة فيما لا حياة فيه؟ إن لم يقبل عليّ الشهود بالصدق، وتعاونني الأهالي بالرغبة والإخلاص فأى «مخضر» في الوجود يوصلني إلى التشرف مرة بمعرفة جان من الجناة؟ وجاءت نوبة العمدة في الشهادة. وحلف اليمين وبدأنا نلقى تلك الأسئلة التي لا تقدم ولا تؤخر... وإذا بغطيط يعلو من ركن الحجرة ويغطي على التحقيق فالتفت فإذا المأمور قد «كوع» على «الكتبة»؛ ورأى العمدة هذه الالتفاتة مني، فاستأذني واتجه إلى المأمور وأيقظه في لطف:

— تفضل يابك على السرير في القاعة.

وقاده في أدب ولطف إلى حجرة أخرى داخلية. ثم عاد أمامي

يدلى بما عنده من أقوال رسمية « تجارية » قد دمغت بطابع الوظيفة؛  
ألفاظها وعبارتها تكاد لا تتغير بين عمدة وآخر ، وهي على كل حال  
لا تنفع ولا تضر ، وتلقى على نار الحادث برداً وسلاماً ، ولم يكد  
حضرة العمدة يوقع بامضائه الذي يضاهى نبش الدجاج تحت أقواله ،  
ويتنحى عن موقف الشهادة ، حتى فتح باب الحجرة الداخلية وظهر  
المأمور وهو يحك جسمه بأظافره ويلتقط بأصابعه أشياء على  
ملابسه ينفضها عنه ، وهو يرغى ويزبد :

— سرير ! أعوذ بالله ! انت عمدة انت ... ؟

فعلبت ما حدث بالتمام . وضحكت في نفسى : وتظاهرت  
بالانهاك في عملي فلم أرفع وجهي عن الأوراق وجلس المأمور في  
مقعده جلسة من قد ذهب النوم من عينيه ذهاباً لا رجعة له تلك  
الليلة . ولم يلبث أن صاح في العمدة :

— هات قهوة والسلام . اعمالها وحياة عينيك .

ثم وجهه إلى الكلام كأنه يريد أن يسلى سهره :

— القضية على الحبل ؟

وهو يرمى بهذا الاصطلاح إلى استطلاع حال القضية ومدى  
نجاحها النجاح الذي يؤهبها للذهاب برأس المتهم إلى المشنقة .  
فأجبت في صوت غير مرتفع دون أن أنظر إليه ، وكأني أخطب نفسي .

— القضية على السرير !

و فجأة نهض المأمور عن مكانه كأنما قد تذكر مفتاح السر وصاح  
— يا شيخ عصفور!

فبرز رأس الرجل العجيب من خلف كرسي من القش بركن  
مظلم من أركان القاعة ونهض بصولجانه الأخضر كأنه يقول:  
« لبيك » .

— رأيك يا شيخ عصفور؟

فلم أطق صبراً . ما كان ينقصنا حقاً إلا أن نستشير المعتوهين في  
قضايا الجنائيات ! فنظرت إلى المأمور نظرة ذات معنى ، فاقرب مني  
وقال :

— الشيخ عصفور كله بركة . مرة دلنا على بندقية متهم مدفونة  
في قاع الترعَة !

— يا حضرة المأمور بدلا من سؤال الشيخ عصفور والشيخ  
طرطور كلف خاطرک وانتقل مع المعاون والعساكر وفتشوا دور  
المشتبه فيهم من الأهالي .

فصاح المأمور :

— يا حضرة المعاون !

فأقبل المعاون من خارج الحجرة وقد سمع قولي ، وقدم إلى  
رئيسه « محضر تفتيش من قسيمة واحدة » :

— أجرينا التفتيش يا فتندم !

فلم ينظر فيه المأمور وناولني إياه بخرت بصري على الكلام الطويل العريض وانتهيت إلى العبارة المألوفة : « . . . ولم نعر على شيء من الأسلحة أو الممنوعات . . . »

فأشرت في ذيل الورقة : « يُرفق بالمحضر » ، ووضعت رأسي في كسفي أفكر فيما ينبغي عمله في هذه القضية . وفيمن ينبغي سؤالهم حتى تكمل محضرنا عشرين صفحة على الأقل . ذلك أني ما زلت أذكر كلمة رئيس النيابة يوماً لي وقد تناول محضراً في عشر صفحات : « مخالفة ؟ جنحة ؟ » فلما أخبرته أنها قضية قتل صاح دهنياً :

« قضية قتل تحقق في عشر صفحات فقط قتل رجل ! قتل نهس آدمية في عشر صفحات !؟ فلما قات له : وإذا ضربنا الجاني بهذه الصفحات القليلة ، لم يعبأ بقولي ومضى يزن المحضر في ميزان كفه الدقيق : « من يصدق أن هذا محضر قتل رجل !؟ » فقلت له على الفور : « إن شاء الله نراعي الوزن » . !

مر بمخاطري كل هذا وأنا مطرق صامت . . . وإذا صوت الشيخ المعتوه يرتفع في القاعة منشداً :

« فنش عن النسوان ،

تعرف سبب الأحران ،

ورمش عين الجيدة ،

يفرش على فدان . . . »

لم أغضب على الشيخ الذى امتن حرمه التحقيق بهذا الغناء ، ولم أطرده خارج القاعة ، ولكنى تفكرت قليلا فى مغزى كلامه لو أن له مغزى ينفعنى . . . كل مايجوز الالتفات إليه كلمة « النسوان » ، والتفتيش لا عن المشبوهين بل عن النسوان . أى نسوان ؟ إنى لم أر قضية خلت من النسوان مثل قضيتنا هذه . فالمضروب يعيش وحيداً بعد أن ماتت زوجته ، ولا أحد معه غير أم عجوز كسحاء . لا ينبغي أن تحسب فى النساء . لا ريب أن هذا العصفور لا يعنى مايقول . هذا الشيخ الأخضر من فصيلة البيغاء لاشك ، يردد الألفاظ والأغاني دون أن يعنى بها شيئاً من الأشياء . نكن مهلاً إن للمجنى عليه طفلاً ، فهل تلك الأم المقعدة المريضة هى التى تعنى بشأنه ؟ « تعالى يا عمدة . . . » وألقيت على العمدة هذا السؤال . فأجاب فى براءة الطفل وسذاجة الأبله .

— الولد فى حضن البنت !

— أى بنت ؟

— البنت ، أخت المرحومة امرأته .

— بنت كبيرة ؟

— « عيلة » .

فنظرت إلى معاون وأمرته أن يحضر هذه البنت فى الحال . ولم يمض قليل حتى بدت غادت فى السادسة عشرة من عمرها ، لم ترعيني

مندوجودى فى الريف أجمل منها وجهاً ولا أرسق قدأ؛ وقفت  
بعتبة الباب فى لباسها الأسود الطويل كأنها دمية من الأبنوس  
طعمت فى موضع الوجه بالعاج وقال لها العمدة مشجعاً :  
— ادخلى يا عروسة .

فتقدمت فى حياء ، واضطربت خطواتها ، إذ لم تعرف بين  
يدى مَنْ من الجالسين يجب عليها الوقوف . فوجهها العمدة إلى  
فوقفت فى وجهى ورفعت إلى رمشين . . ولأول مرة يرتج على فى  
« التحقيق » فلم أدر كيف أسألها . . . ولم يرها السكاتب ، فقد كان  
موقفها خلف ظهره . فلها لحظ صمتى ظن بى تعباً ، فغمس القلم فى  
الدواة ورفع رأسه إليها وهو يسألها :  
اسمك يا بنت . . . ؟

فما إن وقع بصره عليها حتى حملق فيها ولم يعد إلى الورق .  
ونظرت حولى فوجدت مساعدى الناعس قد أفاق ونشط وأخذ  
يرمق الصبية بعينيه الواسعتين . ونقلت بصرى إلى المأمور فإذا به  
الساعة فى غير حاجة إلى قهوة ولا إلى بن ، وزحف الشيخ عصفور  
حتى بلغ موطنى . قدمى فأفغى كالكلب ينظر إلى الفلاحة الحسناء فانغراً  
فاه . حقاً إن للجمال لهيبة . ، ورأيت أن أمك سريعاً ناصية نفسى  
قبل أن ينكشف الأمر ، فقلت لصاحبة الجمال وأنا أكبح عيني حتى  
أنظر إليها :



- اسمك ؟

- ريم .

لفظته في صوت . . . هز نفسي كما تهز الوتر أنامل رقيقة ، فما شككت في أن صوتي سيتهدج إن ألقيت عليها سؤالا آخر فتريئت وبدت لي دقة الموقف وأيقنت ببطء التحقيق إذا قدر لي أن أقف كالداخل بين السؤال والسؤال . فاستجمعت ما بقى عندي من شتات القوة والعزم وهجمت بأسئلة لا أنتظر الجواب عنها إلا جملة ، وقلت لها تكلمي في كل هذا . . . ولبثت أنظر ، فعلمت منها العجب العجيب ! إنها حتى الآن لا تعلم ماجرى للجنى عليه ! فقد أيقظوها من النوم الساعة وجاءوا بها أمامي دون أن يذكروا لها شيئا : ولم أشأ أن أخبرها الآن بما وقع وقد آنت منها أشياء لا يدركها إلا مجرد الإحساس . . .

سألتها ألم يخطبها خاطب ؟ فكان الجواب : بلى ؛ آخر من تقدم إليها فتى جميل لم ترفضه ، ولكن زوج أختها وهو في مقام وليها تردد في القبول كما تردد دائما في قبُول الأيدي الكثيرة التي ارتفعت تدعوها كما ترتفع أيدي المؤمنين بالدعاء . . . « أو تحقدين عليه من أجل هذا ؟ » فكان الجواب كذلك : لا ، قالتها في نبرة حارة ، حرارة خاصة أدركتها كذلك يا حساسي . « وهل كان بينك وبين الفتى الخاطب اتصال ؟ » نعم لقد اجتمعنا أمام الدار مرتين في

لقاء برى . . . وقد علم أنها لا تكرهه زوجاً ، ولكنها تكرهه مخالفة  
وليها . وذلك الولى ماغايتة من رد الخاطبين والطلاب ؟ أهو غموا  
منه فى الحرص على هنائها ؟ أهو لا يجد الزوج الكفء ؟ إنها  
لا تعلم حقيقة سره . وإنها تريد أن تعلم . وإن هذ ما يحيرها أحياناً ،  
وما يبكيها . إنها تريد أن تعلم . تعلم ماذا . . . لاشيء .  
لا تستطيع التعبير . . . إن التعبير هبة لا يملكها كل الناس .

وبعد فالتعبير يستوجب العلم بحقيقة الشعور الرابض فى أعماق  
النفس . . . وهذه الفتاة فيما يخيل إلى ذات نفس كدغل « البوص  
والقصب » لا يصل إلى قاعها من الضوء غير قطع كالدنانير تتراقص  
فى ظلام القاع كلما تمايل القصب . .

على أى حال قد بدأت قطع الضوء تتساقط أيضاً بين سطور  
« المحضر » ، وبدأنا نضع أيدينا على عصب نابض من أعصاب  
القضية ، وهممت أن أطلب فنجاناً آخر من القهوة وقد طاب المجلس  
وحلا التحقيق : وإذا المعاون يسأل ملاحظ النقطة وقد ظهر  
بالباب :

— أحضر الإسعاف ونقل المضرروب ؟

— من زمان !

فأدرت الصبية كل شيء ، فانطلقت من فمها صيحة كتمتها فى  
الحال خجلاً منا ، غير أنى ماشككت فى أن لها دويماً وانفجاراً

داخل نفسها . وأردت أن أمضى في عملي فما وجدت أمامي غير  
فتاة تجيبني بكلام أبتز لاشبع فيه ولا غنى : ورأيت أن أرجىء  
التحقيق فقلت :

— استريحى ياريم . . .

ونظرت إلى المأمور :

— الأحسن نكمل التحقيق الصبح .

فأشار إلى النافذة ، فإذا النهار يدخل منها متلصصا وقد خدعنى  
عنه المصباح المضىء . فاستويت على قدمي إذ ذكرت للفور أن  
جلسة الجرح اليوم ، وقد فاتني أن أدبر الأمر إلى الليل حتى يخلفني  
فيها نائب من الزملاء ، فلا مفر لي اذن من العودة العاجلة حتى  
أحضر الجلسة في الميعاد .

— يا حضرة المعاونا هات البنت فى « البوكس » !

وأقبلنا المحضر على أن نستأنف التحقيق بعد الجلسة فى دار  
النياحة وقمنا إلى « الركائب » فامتطيناها عائدتين والشيوخ عصفور  
خلفنا يصيح ويلوح بعوده فى حركات الثائر المهتاج :

— هى بعينها :

والمأمور يجيبه :

— اعقل . . .

— هى بعينها ، برمشها . . . عرقها ، برمشها .

— اعقل يا شيخ عصفور، وافطن لنفسك، تقع من فوق

الجحش!

ودب التعب في أعضائي فانحنيت على ظهر الحصان، ولكن نسيم الصباح الرطب كان يضرب وجهي ضربات خفيفة كأنها لطيمات مروحة في يد ماجنة ظريفة فلم أفقد نشاطي وطفقت أفكر، وإذا غناء العصفور يرتفع بغتة شديداً كأنه شيء قد انخلع مع قلبه:

— ورمش عينها يفرش . . .

ولم أسمع البقية، بل سمعت شيئاً سقط على الأرض فالتفتنا فألقينا الشيخ عصفور بأطماره<sup>(١)</sup> على الأرض قد فرش . . . فوقنا. وأسرع إليه الحفراء فحملوه إلى حمارة، فاستوى عليه وهو ينفض عن جسمه التراب صائحاً مستأنفاً.

— . . . على فدان . . .

وسمعت المأمور ومساعدى يضحكان ضحكا صافيا. ثم سمعت المأمور ينتهر المعنوه قائلاً له: « افطن لنفسك صاحبك غرقت في الرياح من سنين . . . » ولم يكن في عقلي وقتئذ غير صورة الفتاة في إطارها الأسود وسرها الذي لم أنفذ إليه بعد: ان سرها هو سر القضية. وإني لتدفعني إلى استجلاء الأمر رغبة لاشأن لها بالعمل. إني أيضاً أريد أن أعلم. وسارت القافلة حتى بلغت مصر فامتسعا

---

(١) الأطمار جمع طمر وهو الثوب البالي

عميقاً زاخراً بالماء ، ركبت عليه خشبة من جذوع النخل في عرض  
الذراع . وأراد الخفير أن يدفع في عجز حصاني ليجتاز في المصرف  
على هذه الخشبة التي في ضيق الصراط فانتبهت وصحت :

— أنت مجنون يا خفير ... أمر من هنا أنا والحصان ؟

فبدت على وجه الرجل دهشة :

— سبق لك يا سعادة البك المرور من هنا بالليل أنت

والحصان ده .

فنظرت إلى الخشبة في شبه رعب :

— أنا عدت بالليل المصرف من هنا على الخشبة دي ؟

وكنت وقتها فوق الحصان ده ؟ مستحيل !

— الطريق واسع يابك والحصان عاقل ...

ولم أرد أن أصغى إلى كلام الخفير أكثر من ذلك . فإذا كانت  
هذه الخشبة طريفاً متسعاً في نظر هذا الرجل فهو من غير شك  
سيجتاز الصراط في الآخرة ركباً جميلاً . أما عقل الحصان فإن  
ضمنه هو ، وهو ليس راكمه ؟ فما يحملني أنا الراكب على هذه الضمانة  
الخطرة ؟ وأسرعت فنزلت إلى الأرض واجتزت المصرف ماشياً  
على قدمي فوق الخشبة ، معتمداً على عصاي ...

١٢ أكتوبر . . .

لما عدنا كان ميعاد الجلسة قد حان . ودنت سيارتنا من المحكمة فشاهدنا الأهالي يباهوا مكديسين كالذباب . وكان مساعدى قد خر إلى جوارى صريع الكرى ، ولم يهمنى أمره ، ولم يدر بخلدى قط أن أدعوه وهو على هذه الحال من التعب إلى مشاهدة الجلسة بجوارى كما شهد التحقيق . إنه لم يعتد بعد وصل الليل بالنهار . وحسبه هذه السهرة الممتعة ؛ فلأترققن به في أول عهده بالخدمة . وما إن مررنا بالمحكمة حتى أمرت السائق بالوقوف وأوصيته أن يمضى بالمساعد إلى منزله وحديث المأمور ونزلت أشق طريقاً بين أكوام الرجال والنساء والأطفال . ودخلت حجرة المداولة فوجدت القاضى فى الانتظار . وما كدت أرى وجه القاضى حتى وجعت ، ففى المحكمة قاضيان يتناوبان العمل ، أحدهما يقيم فى القاهرة ولا يأتى إلا يوم الجلسة فى أول قطار ، ويسرع فى نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشرة الذى يعود إلى القاهرة . ومهما زادت القضايا وبلغ عددها فإن هذا القطار لم يفت القاضى يوماً قط أما القاضى الثانى فهو رجل ذو وسواس ؛ وهو بعد يقيم مع أسرته فى دائرة المركز ، فهو يبطئ فى نظر القضايا خشية العجلة والغلط ولعله أيضاً يريد شغل وقته وتسلية ضجره فى هذا الريف وليس أمامه قطار يحرص

على ميعاده : فهو من الصباح يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة دنها سمّرت فيها فلا ينفصل عنها إلا قبيل العصر . ويستأنف الجلسة في أكثر الأحيان عند المساء . وكانت تذيقي جلسته مر العذاب ، فهي الجبس بعينه ، وكأنما قضى على أن أربط إلى منصتي لأبدي حراكاً طول النهار ، وقد وضع حول عنقي وتحت أبطي ذلك اللوسامُ الأحمر الأخضر كأنه الغل . أهو انتقام إلهي لهؤلاء الأبرياء الذين دفعت بهم إلى الجبس دون أن أقصد ؟ أترى أخطاء المهنة تقع تبعاتها " علينا فندفع ثمنها في الحياة دون أن نعرف ؟ وجمت لرؤية القاضى إذ أدركت أنى وقعت في جلسة لا ترحم بعد ليلة كلها عمل . ولست أدري ما الذى طمس ذا كرتى فحسبت خطأ أن اليوم نوبة ذلك القاضى السريع .

\*\*\*

دخلت الجلسة : وكان أول ما فعلت أن نظرت في « الرول » فإذا أمامنا سبعون مخالفة وأربعون جنحة ، عدد والحمد لله كفيلاً أن يجلسنا بلا حراك مع هذا القاضى طول اليوم على أن القضايا دائماً عند هذا القاضى أكثر منها عند القاضى الآخر ، والسبب بسيط : أن القاضى الموسوس لا يحكم في المخالفة بأكثر من غرامة عشرين قرشاً ، بينما الآخر يرفع سعر الغرامة إلى خمسين ، وعلم المخالفون

٦ — مسؤولياتها

والمتهمون بذلك، فجعلوا كل همهم الهروب من صاحب السعر المرتفع  
والالتجاء إلى صاحب السعر المناسب . وطالما تبرم هذا القاضي  
وشكا من ازدياد عمله يوماً عن يوم دون أن يدري العلة . فنكنت  
أقول في نفسي « ارفع أسعارك ترما يسرك » وبدأ المحضر ينادى  
أسماء المتهمين من ورقة في يده . وقزمان أفندي المحضر رجل مسن  
أبيض الشعر والشاربين ذو منظر وهيئة يليقان برئيس محكمة عليا  
وهو إذا نادى تعاضم في حركاته وإشاراتهِ وصوته ، والتفت إلى  
الحاجب بالباب التفاته الأمر الناهي ، فيردد الحاجب الاسم خارج  
قاعة الجلسة كما تلقاه من المحضر ، ولكن في مد وغن ونغمة  
كنغمة الباعة المتجولين . وقد لاحظ ذلك أحد القضاة مرة فقال له .  
« أنت يا شعبان قاعد تنادى على قضايا جنح ومخالفات » أو على  
بطاطه وبلح أمهات ، فأجاب الحاجب : جنح ومخالفات أو بلح  
أمهات كله أكل عيش » .

ومثل أول المخالفين أمام القاضي الغارق في الأوراق فرفع  
القاضي رأسه ووضع منظاره السميك على أنفه، وقال للبائل بين يديه:  
— أنت ياراجل خالفت لائحة السلخانات بأن أجريت ذبح  
خروف خارج السلخانة .

— ياسيدي القاضي ، الخروف . . . ذبحناه . ولا مؤاخذة، في  
ليلة حظ « عقبال عندك » بمناسبة ظهور الولد .



غرامة عشرين « قرش » . غيره . . .  
فنادى المحضر . ونادى ثم نادى . . . مخالقات متتابعة كلها من  
ذلك النوع الذى مضى الحكم فيه . . . وقد تركت القاضى يحكم وجعلت  
أروح عن نفسى بمشاهدة الأهالى الحاضرين فى الجلسة . . . وقد ملأوا  
المقاعد و « الدك » وفاض فيضهم على الأرض والممرات . . .  
فجلسوا القرفصاء كأنهم الماشية يرفعون عيونهم الخاشعة إلى القاضى  
وهو ينطق الحكم كأنه راع فى يده عصا . وضاق ذرع القاضى  
بذلك اللون المتكرر من المخالقات فصاح .

— فهمونى الحكاية ! الجلسة كلها خرفان خارج السلخانة !  
وحلق فى الناس بعينين كالمحصبين خلف المنظار الراتص على  
طرف أنفه ، ولم يفتن أحد ولا هو نفسه لما فى هذه العبارة من  
تعريض ومضى المحضر ينادى وقد تغير قليلا نوع المخالفة ودخلنا  
فى نوع جديد فقد قال القاضى للمخالف الذى حضر :

— أنت يارحل متهم بأنك غسلت ملابسك فى الترعة .

— ياسعادة القاضى ربنا يعلى مراتبك ؟ تحكم على بغرامة لأنى

غسلت ملابسى ؟

— لأنك غسلتها فى الترعة .

وأغسلها « فىن » ؟

فتردد القاضى وتفكر ولم يستطع جواباً ذلك أنه يعرف أن

هؤلاء المساكين لا يملكون في تلك القرى أحواضاً يصب فيها الماء المقطر الصافي من الأنايب ، فهم قد تركوا طول حياتهم يعيشون كالسائمة ، ومع ذلك يطلب إليهم أن يخضعوا إلى قانون قد استوفد من الخارج على أحدث طراز ، والتفت القاضى إلى وقال :

— النياية ..

— النياية ليس من شأنها أن تبحث أين يغسل هذا الرجل ملبسه وإمكن ما يعنها هو تطبيق القانون ! فأشاح القاضى بوجهه عنى وأطرق قليلا وهز رأسه ثم قال فى سرعة من يزيح عن كاهله حملا :  
— غرامة عشرين ! غيره .

فصاح قزمان أفندى باسم المخالف التالى فظهر رجل كهل من المزارعين يبدو من زرقة « شال » عمامته « المزهرة » ومن جلبابه الكشمير وعباءته الجوخ الأمبريال وحذائه « اللستيك » الفاقع فى صفوته ، أنه على جانب من اليسار واستواء الحال فما أن مثل حتى ابتدره القاضى :

— أنت يا شيخ ، أنت متهم بأنك لم تسجل كلبك فى الميعاد القانونى .

فتضح الرجل وهز رأسه وتمتم كأنه يستغفر ويسترجع :

— عشنا وشفنا الكلاب تتسجل « زى الأطيان » وتبقى لها  
حيثية .

— غرامة عشرين . . . غيره .

ومضت الأحكام فى جميع المخالفات على هذا النحو ، ولم أرى  
واحداً من المخالفين قد بدا عليه أنه يؤمن بحقيقة ما ارتكب ، إنما  
هو غرم وقع عليهم من السماء كما تقع المصائب ، وإتاوة يؤدونها ؛  
لأن القانون يقول : إنهم يجب عليهم أن يؤدوها ! ولطالما سألت  
نفسى عن معنى هذه المحاكمة ، أنستطيع أن نسمى هذا القضاء رادعاً  
والمذنب لا يدرك مطلقاً أنه مذنب ؟ وفرغنا من المخالفات وصاح  
المحضر : « قضايا الجنح ، ونظر فى ورقة « الرول » ونادى « أم السعد  
بنت إبراهيم الجرف ، فظهرت فلاحه عجوز تدب فى وسط القاعة  
حتى بلغت المنصة ووقفت بين يدى قزمان أفندى المحضر . . فوجهها  
إلى القاضى فوقفت تنظر إليه ببصر ضعيف ثم لا تلبث أن تحولت  
عنه وعادت إلى الوقوف بين يدى المحضر الهرم . وسألها القاضى  
ووجهه فى الورق :

— اسمك ؟

— محسوبتك أم السعد .

قالتها وكأنها توجع الخطاب إلى المحضر فغمزها قزمان أفندى  
ووجهها إلى المنصة وسألها القاضى :

- صنعتك ؟

- صنعتي حرمة<sup>(١)</sup>

- أنت متهمة أنك عضضت أصبع الشيخ حسن عمارة .

فتركت المنصة ووجهت الكلام إلى المحضر :

وحياة هيبتك وشيبتك إني ما عبت أبداً . أنا حلفت ووقع مني

يمين أن البنية ما يقل مهرها عن العشرين بنتو . .

فرفع القاضي رأسه وثبت منظاره ونظر إليها صائحاً :

- تعالى كليني هنا أنا ، القاضي ، أنا ، العضة حصلت منك ؟

قولي نعم أو لا ، كلمة واحدة .

- عضة ؟ حد الله ! أنا صحيح قبيحة ، لكن كله إلا العض .

فصاح القاضي في المحضر : « هات الشاهد » فحضر المجنى عليه

وقد لف بنصره في رباط صحي ، فسأله القاضي عن اسمه وصناعته

وحلف اليمين أن لا يقول غير الحق واستوضحه الأمر . فقال الرجل :

-- أنا يا حضرة القاضي لالي في الطور ولا في الطحين .

والقصة وما فيها أني كنت واسطة خير .

وسكت كأنه قد أبان وأفصح عن سر القضية . فحملق فيه القاضي

وهو يكظم غيظه ثم انتهره وأمره أن يقص ما حدث بالتفصيل ،

فبسط الرجل الأمر قائلاً : إن لهذه المتهمـة ابنة تدعى

« ست أبوها ، خطبها فلاح يدعى « السيد حريشة » ، وعرض مهرأ قدره خمسة عشر بنتو فلم تقبل أمها بغير العشرين ، ووقف الأمر عند هذا الحد إلى أن جاء ذات يوم شقيق الخاطب وهو صبي صغير يطلق عليه اسم « الزنجر » ، فذهب من تلقاء نفسه إلى أهل العروس وأبلغهم كذباً أن الخاطب قد قبل الشرط ؛ ثم رجع إلى أخيه وأخبره أن أهل البنت قد رضوا النزول بالمهر كما عرض ، وكان من أثر عبث هذا الصبي ومكره بالطرفين أن حدد يوم لقراءة الفاتحة في بيت العروس ، وانتدب الخاطب الشيخ عمارة هذا والشيخ فرج هذا ليكونا شاهديه . وتقابل الجميع وذبح والد البنت أوزة ، وما كاد الطعام يهياً ويقدم إلى الضيوف حتى ذكر المهر . وظهرت الأكذوبة وإذا الموقف لم يتغير ؛ واحتدم الجدل بين الطرفين . وصاحت أم البنت تولول في صحن الدار . يامصبتنا الكبيرة يا شماتة الأعادي والنبي ما أسلم بنتي بأقل من عشرين . وخرجت المرأة في وسط الرجال كالمجنونة تدافع عن حق ابنتها ، وتخشى أن ينهى الرجال الأمر فيما بينهم بما لا ترضى ؛ وهزت الشيخ حسن الأريحية فلم يضع يده في طعام وقام إلى المرأة يداورها ويحاورها ويقنعها . بينما مد زميله الشيخ فرج يده إلى الأوزة وينهش منها نهشاً دون أن يدخل في النزاع المحتدم . ويظهر أن التحمس من الجانبين قد تجاوز حد الكلام وإذا الشيخ حسن يرى يده لا في

طبق الأوز ولكن في فم العجوز : فصرخ صرخة داوية وانقلبت  
الدار شر منقلب ، واختلط الحابل بالنابل ، وجذب الشيخ حسن  
رفيقه ، فانتزعه من أمام الطعام انتزاعاً ، وخرج به وهو يحرق  
الآرم : فهذا الرفيق لم يقل كلمة وحظي بالأكل ، وهو الذي  
تحمس قد خرج من الوليمة بجوعه ، وقد أكلت العجوز أصبعه ..  
واسترسل المجنى عليه في الكلام . وفجأة أخذت القاضي خالجة ،  
وتيقظ . وسواسه فقاطع المتكلم ، وقال كالمخاطب لنفسه : « يا ترى أنا  
حلفت الشاهد اليمين . . . » والتفت إلى قائلاً . يا حضرة وكيل النيابة  
أنا حلفت الشاهد اليمين ؟؟ » فجعلت أتذكر . . . ولم يستطع القاضي  
طرد الشك فصاح . « أحلف يا رجل : والله العظيم أقول الحق » فخف  
الرجل ، فصاح به القاضي : « واذكر أقوالك من أولها . .  
فعلت أننا لن ننتهي ، وبلغ الضيق أنفي وتشاءبت وغرقت في  
مقعدي وقد عبث النوم بأجفاني ، ومضى وقت لست أدري مقداره ،  
وإذا صوت القاضي يصيح بي « النيابة ! طلبات النيابة » .  
ففتحت عينين جمر اوين لا يبدو فيهما غير طلب النوم ، فأخبرني  
القاضي أنه اطلع الآن على تقرير الطبيب الشرعي فإذا الإصابة قد  
تخلف عنها عاهة مستديمة هي فقد « السلامة » الوسطى للبصر ؛  
فاعتدلت في مقعدي وطلبت في الحال الحكم بعدم الاختصاص .  
فالتفت القاضي إلى العجوز قائلاً :

— الواقعة أصبحت جنائية من اختصاص محكمة الجنايات  
فلم يبد على المرأة أنها فهمت الفارق ؛ فالعضة في نظرها هي  
ما زالت العضة ، فما الذي حولها من جنحة إلى جنائية ؟ آه من هذا  
القانون الذي لا يمكن أن يفهم كنهه هؤلاء المساكين !  
ونوديت القضية التالية ، فإذا هي شجار بالهراوات وقع بين والد  
« ست أبوها ، وبين أهل الزوج ( السيد حر يشه ) فلقد تم الزواج  
بين الطرفين آخر الأمر . وبعث الزوج بعض أهله ومعهم جمل  
لاستلام العروس من بيت أبيها . فقابلهم الأب محتدأً صارخاً في  
وجوههم « جمل » ؟ بقي بنتي تخرج على جمل ! أبداً . لا بد من  
« الكومبيل » .

وتجادل الطرفان فيمن يدفع ثمن هذه البدعة التي رماها بهم  
تطور العصر . وأدى الجدل إلى رفع العصي وإسالة بعض قطرات  
من الدماء ، لامناص منها في مثل هذه الظروف . وانتهى الأمر بأن  
أخرج أحد الساعين في الخير ريالاً من جيبه واستأجر سيارة من  
تلك السيارات التي تمر بالطرق الزراعية . وحكم القاضي في هذه  
القضية ثم صاح :

— « انتهينامن الفرح ، و « الدخلة ، على خير ! . . . غيره !  
فنادى المحضر بصوته الممتلئ « قضايا المحاييس ، وذكر إسماً

من الأسماء فدوت صلصلة السلاسل ونهض من بين لابسى الخيش  
رجل فك الحارس قيده . ونهض من بين المحامين أفدى ذو بطن  
كأنها القربة المملوءة وقال : « حاضر مع المتهم . . . فقلت فى  
نفسى ، تلك قضية لها محام لن يتركنا قبل أن يفرغ فى رؤوسنا  
ماشاء بحجة حرية الدفاع . فلا غمض عيني منذ الآن فرأسى أحوج  
ما يكون إلى الراحة بعد سهر الليل . وسمعت القاضى يقول  
للجوس :

— أنت متهم بأنك سرقت « وابور غاز » .

— أنا صحيح لقيت الوابور قدام باب الدكان . لكن لا سرقت

ولا نهبت . . .

فالتفت القاضى إلى المحضر قائلاً : « هات الشاهد ، فحضر رجل  
على رأسه لبدة بيضاء وعلى منكبويه « دفة » ، خلف اليمين وقال إنه  
أشعل « وابور الغاز » ليهب الشاى لبعض « الزبائن » ، الجالسين  
داخل الحانوت . فهو بدال رينى صغير يبيع السكر والبن والشاى  
والتبغ ويجتمع لديه أحياناً بعض الناس كأنهم فى شبه مقهى ، ولقد  
وضع الوابور مشتعلاً عند عتبة الباب فى الطريق ، ودخل يحضر  
الإبريق ، وما إن عاد حتى رأى المتهم قد حمل الوابور بناره وجرى  
به . وجعل الشاهد يسهب ويستشهد بمن حضر ومن جرى معه  
خلف السارق ، والقاضى مطرق وقد علمت من هيئته أنه يفكر



في شيء آخر . و فجأة نظر إلى وقال كالمخاطب لنفسه : أنا حلفت  
الشاهد اليمين ؟ ، فما تمالككت أن صحت في ضيق : « سبحان الله !  
أنا سمعت الشاهد حلف ، ، فقال لي القاضي : وأنت متأكد ؟ ،  
فشعرت أن روحى تفارقتى فهمست : « تحب أني أحلف لك أنه  
حلف ؟ ، فاطمأن القاضي بعض الاطمئنان وأصغى إليه بقية الشهود  
في صمت وانتباه . ولم يطق المتهم صبراً فهض بغتة كالمستغيث :  
— يا حضرة القاضي ! في الدنيا « حرامى » يسرق « وابور  
جاز » بناره !

فأسكنه القاضي بإشارة قائلاً :

— تسألنى أنا ؟ ! عمرى ما اشتغلت « حرامى » ، ونظر إلى  
منصة الدفاع . فقام المحامى عن المتهم يصيح قائلاً : يا حضرة  
الرئيس نحن لم نصادف وابور ، ولا رأينا وابور ، ولا مررنا في  
طريق به وابور . . . والقضية ملفقة من ألفها إلى بائها . . . وأراد  
المحامى أن ينطلق في هذا الكلام وأن يصول ويجول ولكن القاضي  
قاطعهم .

— حيلك يا أستاذ . المتهم نفسه معترف بأنه صحيح لقي  
الوابور قدام باب الدكان .  
فضرب الأستاذ وجه المنصة بقبضته وقال :

- هذا سوء دفاع من موكلى .

فأجاب القاضى فى هدوء :

- غرض حضرتك أنى أصدق حسن دفاعك وأكذب الحقيقة

التي نطق بها موكلك أمامنا جميعاً !

فاحتج المحامى ورفع عقيرته وقد بدا لى أن كل همه أن يجلجل  
صوته فى الجلسة ، وأن يتصبب عرقه فيمسحه بمنديله وينظر إلى  
«زبونه» كأنما يريه الجهد الذى يتكبده من أجله والعناية التي يبذلها  
فى سبيله . وكان التعب والضيق والحبس بلا حراك أمام منصتى قد  
صيرنى شخصاً لا يعنى ولا يفهم ما يدور حوله ، فأخفيت وجهى فى  
ملفات من ملفات القضايا واستسلمت للنعاس .

١٣ أكتوبر ...

انتهت الجلسة عند العصر ، وقد خرجت منها محطم الأعصاب .  
وما كدت افترق عن القاضي حتى وجدت في وجهي أحد العساكر  
يحمل أكداساً من « نماذج » تنفيذ الأحكام ، يقدمها إلى للتوقيع .  
فوضعت إمضائي دون وعي على هذه الأوراق التي ليس لها آخر .  
وإمضائي الآن لا يمت بصلة الشبه إلى اسمي ، فقد أصبح مع السرعة  
وكثرة التوقيع خطأ أو خطين ألقيهما حيثما اتفق . وما إن فرغت  
من ذلك وقد تصبب مني العرق ، حتى سمعت من يضرب الأسفلت  
بجذائه ويرفع كفه بالسلام :

التحقيق منظر فوق في قضية ضرب النار !  
ولكن للقوة الآدمية حدوداً ولم أتبلغ بلقمة ولم أطرح  
جسمي على فراش منذ ... منذ أمس الأول . فما تمالكت أن قلت :  
- ضرب نار في عينك ؟ لو كما عسكر في الخنادق ، أو في  
حرب الدردنيل لرأفوا بحالنا وخافوا على صحتنا ...

لكن ما ذنب الخفير أوجه إليه هذا الكلام ؟ فتركته وسرت  
في طريق ، وصعدت إلى مكنتي في الطابق الثاني فألفيت بيابه الفتاة  
ريم ، منتظرة مع الحراس وعلى مقربة منها الشيخ عصفور بعوده  
الأخضر ؛ ولست أدري لماذا ينتظر مع المنتظرين ؟ وأنعشني قليلا

مرأى الفتاة كما ينتعش العشب الذابل بقطرات الندى . ودخلت  
حجرتي فرأيت المأمور والمعاون وكاتب التحقيق جالسين في نشاط  
المستيقظ من نوم مريح ، فعلبت أنهم آتون من منازلهم ، وأنهم الآن  
على استعداد لقتل الوقت في هذه القضية ، فذلك ، خير من لعب  
الطاولة ، في النادي أو مص القصب أمام الأجرخانة . أما أنا  
فإنسان لا يصلح الآن لشيء . إلا للرقاد سبع ساعات متواليات .  
فأعلنت الحاضرين برغبتي في تأجيل التحقيق إلى الغد ، فأذعنوا .  
ولكن بدا مشكل لم يظن إليه أحد : هذه الفتاة أين تبيت ليلتها ؟  
إنها الآن على مسافة بعيدة من قريتها . وليس من الرأى أن تعود  
لتأتى مع الصباح . فقد يتصل بها بعض من يعينهم أمر القضية من  
الأهالى والشهود فيلقنونها ما لا يستقيم مع الصدق والحق ، وهى  
لا تعرف أحداً في هذا المركز ولا أهل لها به . هنا صاح المأمور  
كمن وجد الحل السعيد الموفق :

— المسألة بسيطة . البنت تنام في بيتي للصبح فالتفتنا إليه  
جميعاً في شبه زعر : ثم تمالكنا أنفسنا ، ولست أدري كيف دب  
فيما نحن الحاضرين نفس الشعور في نفس الوقت . حتى الشيخ  
عصفور ، وقد زحف خلفي وذلف إلى الحجره ، ظهر في عينيه القلق  
وكان الموقف دقيقاً . إن أى اعتراض منا معناه الريبة في سلوك  
حضرة المأمور :

العجيب أن الحاضرين كلهم قد أطارقوا ووجعوا ، وأراد المأمور أن يدخل علينا الإطمئنان فقال :

— أنا عرضي أنها تكون في محل أمين بين زوجتي وأولادي . ولم أجد بدا من الإزعاج . وتركت المكان وانصرفت إلى منزلي . وتناولت شيئاً من الطعام على عجل . ثم أويت إلى فراشي واستغرقت في نوم لم أصح منه إلا عند منتصف الليل : قمت عطشان . فشربت جرعة من « القلة » الفخار بالنافذة ، وتذكرت الفتاة وتخيلتها في بيت صاحبنا فنفر من رأسي النوم وتمنيت لو يقع الآن حادث أقوم له ومعى المأمور ولكن الحوادث كالقنوط إذا ناديتها رفضت المجيء ، وإذا طردتها جاءت تتمسح بالأقدام : ولم أجد ما أصنع . وخالجتني ريب وشكوك . وطال الليل في نظري وسمح وتمنيت طلوع النهار . وأردت أن أشغل فكري بتدوين يومياتي فحمد القلم في يدي . ووقع بصري على أكوام من قضايا الجرح والمخالفات والعوارض من « إيراد » اليومين السابقين ، أرسلها إلى كاتب الجدول لقرائها وتقييدها ووصف التهمة وتقديمها إلى الجلسات : فلم آنس عندي ميلاً إلى العمل . فأتجهت إلى النافذة وفتحتها واستنشقت هواء الليل الرطب ، ونظرت إلى النجوم تشرف على هذا السكون الشامل في هذا الريف النائم ، كأنها عيون ساهرة مطلعة على خفايا الأشياء . . .

بجأة خطر لي أن أرتدى ثيابي وأن أنزل إلى الطريق وأدور  
حول منزل المأمور . ماهذا الجنون ؟ أنا أفعل ذلك؟ وإذا (ضبطني)  
خفير الدرك؟ إنه قد يعرف شخصي فيعتذر ولكنه سيخبر الناس  
ويشيع الخبر وتكون الفضيحة . لا مفر إذن من انتظار الصباح  
وما يأتي به . . .

على أن الله لطف بي آخر الأمر فأرسل إلى إشارة تليفونية ،  
طالعتها في الحال فإذا هي واقعة تافهة مما لا تقوم لمثلها بالليل :  
. . . . . يمرور قطار البضاعة نمرة ٢٠٩ خط الدلتا الضيقة عند  
الكيلو ١٧ أثناء عمل مناورة وجد مسمار حدادي على الشريط  
والحادثة بفعل فاعل مجهول . الخ ، وقد أشر المأمور في ذيل  
الإشارة بانتداب حضرة معاون الإدارة للانتقال وإخطار البك  
وكيل النيابة للعلم . ومعنى ذلك أنه لن يقوم ولا يريد لي أن أقوم .  
ولكن كيف أضيع هذه الفرصة التي هبطت من السماء ؟ ليس أحب  
إلى الليلة من أن أقلق راحتي وراحة حضرة المأمور . وارتديت في  
الحال ثيابي وأمرت بإحضار السيارة ومررت بمنزل صاحبنا .  
وأطلقت عليه من يوسع بابه طرقاتاً ويخبره بانتقالى . فأطل الرجل  
من نافذته صائحاً :

— مسمار صغير نقوم له كلنا بالليل !

فأخرجت رأسي من نافذة السيارة :

— لو كانت إبرة . مادامت الحادثة بفعل فاعل أصبحت جناية  
لاحظ أنها جناية تعطيل قطار ، أخطر جناية في الدنيا . لا بد من  
حضورك يا حضرة المأمور

— أنا . . . أنا اتدبت معاون الإدارة .

— لا بد من حضورك شخصياً .

— الليلة . . . مستحيل . . . أنا الليلة . . . تعبان . . .

— كلنا في التعب سواء : لكن الواجب يحتم علينا . . .

فأطرق المأمور لحظة مفكراً في ضيق وامتعاض ، ورأى  
عزيمتي واستماتني ، وخشى أن يعارضني في أمر متعلق بالعمل ،  
فأذعن وطلب إلى الانتظار هنيئة حتى يرتدى ثيابه ، ونزل وجلس  
إلى جانبي في السيارة وهو ينفخ من الغيظ . وتذهبت إلى غيبة الشيخ  
عصفور . إذ على الرغم من صوت البوق لم يبد له أثر ، وكان فسكر  
المأمور مشغولاً هذه المرة ، فلم يفتن لغياب الشيخ ، فلقد مضى  
إطرافه برهة ثم قال :

— أي نعم ! الواجب يحتم علينا . . . لكن يعني . . . هسهار ؟

فأغمضت عيني حتى لا ينتظر مني جواباً . فاستطرد :

الله يسميه بالخير وكيل النيابة سلفك . كان يسأل في قضية  
القتل شاهدين فقط لا غير ويقفل محضره ويميل على ويقول :  
« هو القاتل أبونا والآخرنا ؟ قم يا شيخ نبل ريقنا ، !

ولم أعقب على كلامه بحرف ، ولم أنبس طول الطريق بكلمة حتى بلغنا الكليو ١٧ . ووجدنا عمال الدريسة وقطار البضاعة وسائقه . وقدم إلينا نائب العمدة المسمار ، وأشار إلى عربة محملة بأكياس القطن كادت تخرج عن القضيب ؟ فتناولت المسمار بين أصابعي وجعلت أخضه ، والمأمور خلقى يقول باسمي :

— وكان العطشجي فين لما الوابور وقع انكسر ، فعلبت أنه يهزل ، وأنه يشير إلى تلك الأغنية التي كانت شائعة منذ ثلاثين عاما يوم كانت شفيقه القبطية تجلس على عرش الطرب . وسمع السائق تلك العبارة وحملها محمل الجد فتقدم يقول :

— لا حصل كسر ولا وقع يافندى ! وأنا ساعة الحادثة كنت جنب الفرملة ، وربطت في الحال ..

ومضى يسرد آراءه قائلا إن أهل هذه المنطقة بسطاء العقول ولعلمهم من أصلاب تلك القرية التي عازمت القطار ، في أول ظهوره وقدمت إليه الطعام والشراب . ولا يبعد أن يكون أحد هؤلاء الأهالي قد دفعه العبط أو حب الاستطلاع أن يضع هذا المسمار على الخط الحديدى ليرى ما يصنع القطار ، وكيف يتصرف ، وكيف يقع على جنبه أو على وجهه . وتقدم عامل دريسة فقال ان المسألة ليست مسألة بساطة أو بلاهة . إنما هو انتقام من الشركة . فالأهالي في هذه الجهة يعيشون على استخراج الحصى من الجبل ونقله على



الخير والجمال ويبيعه للبقاولين ، فجاءت شركة سكة حديد الداتا الانجليزية فمدت هذا الخط حديثاً إلى الجبل وخصت نفسها بهذا المورد وانتزعت بذلك حتى الحصى من أفواه هؤلاء الجياع المساكين ، وسواء أكان هذا هو السبب أم ذلك فإن الفاعل هنا أيضاً غير معروف ولا ينتظر معرفته وقد اتهمنا من الأمر بأن وضعنا المسمار داخل حرز ، وختمنا عليه بالشمع الأحمر وأرقناه بالأوراق . . . إلى آخر هذا الكلام الرسمي الذي هو كل بضاعتنا ، وكان الندى قد تساقط على رؤوسنا فرأى المأمور فتح المحضر في دوار العمدة ، فسألت عن المسافة بيننا وبينه ، فرد نائبه قائلاً :  
- « فركة كعب ، يا حضرة البك !

فصدقناه ، وسرنا على أقدامنا حتى كادت مفاصلنا تنخلع ، وما وصلنا حتى أذن الفجر في زاوية الناحية . وتركت المأمور « يسبخ ، لنائب العمدة على « فركة ، الكعب ، وأنهمكت في فتح المحضر وسؤال الشهود حتى فرغت منهم جميعاً ، وأردت أن أختتم محضري ، وإذا بي أرى حركة نصب مائدة وإعداد طعام ، وحضرة المأمور قائماً قاعداً ينظر في الخوان ويدخل ويخرج دون أن أعلم ما يشغله من الأمر ، وأخيراً سمعته يقول للعمدة في ناحية .

- اسمع يا عمدة البك الوكيل لا يحب الخرفان على الصبح ولا الديوك ولا حاجة أبداً ، ولكن لا بأس من كم زغولة مدفونة

في الأرز ، والقراقيش إياها والفطير المشلتت وإن كان عليه كم  
كنسكوت محمر مفيش ضرر ، واللبن الرايب طبعاً شئ مفيد للصحة .  
ولا بأس من كم بيضة مقليه في القشدة ، كفاية ، إياك يا عمدة تعمل  
حاجة زيادة البك الوكيل أكلته ضعيفة ، وإن كان عندك غسل نحل  
بشمعه لا بأس . قرصين جنبه ضاني لا مانع ، طبق كعك وغريبة  
. الغرض حاجات خفيفة لطيفة وأنت سيد العارفين !

أظرت لهذا الكلام واحمر وجبي ولم أدر ما أصنع . ورأيت  
الخير في أن أسرع بالانصراف . فطويت أوراقى على عجل . ولكن  
عين المأمور لحظتى وأدرك غرضى . فجاءنى مسرعاً يسألنى :

— التحقيق انتهى ؟

— من زمان !

فنظر إلى المائدة التي لم يوضع عليها شئ . بعد ثم نظر إلى :

— جميع الشهود أعطوا أقوالهم ؟

— جميعهم .

— ولا شاهد واحد فاضل . . . ؟

— ولا ربع شاهد

فتركنى وخرج سريماً ثم عاد بعد قليل يجذب أحداً أهالى من

« حرامه » ودفعه أمامى دفعا وأشار إليه وقال :

— شاهد مهم عنده أقوال

فأبدت ارتياني في قيمة كلام هذا الرجل وأظهرت رغبتى في  
الاكتفاء بمن سألت من شهود . ولكن المأمور ألح في الرجاء أن  
أصغى إلى هذا الشاهد أيضا فإن لديه معلومات ذات أهمية عظمى .  
فنشرت ورقى من جديد وماكدت أبدأ في إلقاء السؤال ، حتى برز  
العمدة وخلفه خدمه يضعون الطعام على المائدة . وارتفع صوت  
سيد الدار يدعوننا إلى الفطور . فاعتذرت بضعف صحتى وإمساكى  
عن الأكل عادة في الصباح فانطلق من العمدة قسم غليظ . وتواطأ  
في الحال مع المأمور على حملى من مكانى حملا . وإذا بي أجد نفسى  
في صدر المائدة . فأذعنت ، وجعلت أنظر ساعة إلى هؤلاء المخلوقات  
وبينهم المأمور يأكلون وينهشون ويزددون وقد انشغلوا بأنفسهم  
فلم يفتنوا حتى إلى قلة أكلى ؛ وقتت من بينهم متسللا بعد قليل  
وجلست في مكانى الأول انتظر تارة وأتصفح محضرى تارة إلى أن  
فرغوا من أمر بطونهم وأتوا على مافوق الخوان وقاموا يمسحون  
أيديهم فى غطاء المائدة الذى لم ير وجه الصابون منذ عامين ، وأقبل  
على المأمور يتجشأ ويقول :

أظن زجع مادام التحقيق انتهى .

فأشرت إلى الشاهد الذى كان قد جائنى به وقد نسيه الآن

فبما يظهر :

— لما نسأل الشاهد المهم !

فأجاب المأمور من فوره :

لامهم ولا حاجة .

- وتركتي وأتجه إلى الفلاح وقال له

- أنت يا ولد عندك معلومات ؟

فأجاب الفلاح :

- 'لع' .

أى لا فالتفت المأمور إلى فائلا :

- جحش الله في برسيمه الا عنده معلومات ولا يحزنون .

قم بنا ياسعادة البك نرجع بلدنا !

ونهنضنا عائدين ، وقد ارتفعت الشمس . ولم نكد نبليغ دار

المركز حتى أقبل علينا « البلوكامين » يحمل إشارة من المستشفى

الأميرى أن المصاب « قرر الدولة علوان » قد أفاق من غيبوبته

الآن ويمكن استجوابه ، فأسرعنا إلى المستشفى لا نلوى على شيء ،

خشبة أن يعود المصاب إلى الإغماء أو سوء الحال فلانستطيع أبدا

أن نستخلص من بين شفتيه سر الحادث .

ودخلنا المستشفى وسألنا عن « الحكيمباشي » فقبل لنا أنه في

قاعة العمليات ، فسرنا في الردهة الموصلة إليها ، فقابلتنا تلك الأسر

الصغيرة والمحفات التي تجرى على عجلات فوق الأسفلت كأنها

عربات الحمالين في المحطات الكبرى ، ورأينا نلك المبخار وأدوات

التعقيم تدفع على بكر ويتصاعد منها البخار ، والمرضون في هرج  
ومرج بأرديتهم البيضاء يدفعون تلك العجلات التي تحمل أجساما  
في طريق الفناء ، ويدخلون بها تلك القاعة الرهيبة ويخرجون دون  
أن يبدو على وجوههم أثر اهتمام لموت أو حياة ، فوقفنا قليلا  
وقد شرد خاطرى وخاءرني إحساس من يقف في المحطة بين القطر .  
نعم ، أولست الساعة في تلك المحطة التي يسافر منها المريض إلى العالم  
الآخر ؟ وحانت مني التفاتة إلى باب المستشفى الكبير ورأيت  
العسكري المكلف بالحراسة يطرد زرافات النساء المجتمععات في  
ثيابهن السوداء ، طرحن ، الزرق وأصواتهن التي يقطعها عويل  
التعلق فعلمت أنه سيلقى الهن بجثة بعد قليل . فإنهم في كل يوم  
يلقون خارج أسوار هذا المكان بجثة أو جثتين ليفترسها الحزن  
الرابض بالباب ذو الناب الأزرق في لون النيلة ، والمخلب المعفر  
بالطين والتراب .

وفتح باب قاعة العمليات وخرج ممرض يحمل دلوأ فيه دم  
سائل ومتجمد وقطع من اللحم كأنها أحشاء خروف ، فنظرت في  
ذلك ، فقال لي الرجل ان هذا خرج من بطن امرأة هي الساعة  
فوق المشرحة تحت البنج فجمدت في موقفي . وبادر المأمور  
وطلب باسمي مقابلة الحكيمباشى في الحال . فذهب الممرض وعاد

يفتح لنا باب قاعة العمليات، فتجلدت ودخلت وخلفي من كان معي،  
فقابلني الحكيمباشي بابتسامة وهو مازال منحنيّاً في معطفه الأبيض  
على شيء فوق المشرحة وقد شمر عن زراعيه وفي يده أداة كأنها  
« الكماشة »، وحوله رهط من أصدقائه غير الأطباء عرفت منهم  
بعض الأعيان في ملابسهم العادية. فدنوت ونظرت إلى الذي بين  
يديه فإذا هو جسم فتاة قد شق بطنها شقاً طويلاً من الصدر حتى  
أسفل البطن، وإذا « الكماشة » في يده تجمع الجلد الذي انشق  
وتخيظه بشيء كأنه المسامير الصغيرة والطبيب يفعل ذلك في سرعة  
غريبة وهو يثرثر مع ضيوفه مازحاً كأنه « حاو »، يفاخر بخفة يده  
ومهارة صنعته. ونظرت في وجه البنت الشاحب وهي كالميتة، ثم  
إلى جلدة بطنها وقد رشقت بالمسامير في صف طويل كأنها جلدة  
حذاء في يد الإسكافي؛ فشعرت بدوار في رأسي وخفت أن  
أسقط، فاعتمدت على جانب المشرحة. ولحظ الطبيب اصفرار  
وجهي فترك المريضة وحدث في وجهي قلقاً فأسرعت وخرجت  
من القاعة وأنا أقول له في صوت لم يخرج إلا نصفه من حلقى:  
— منتظر يدكتور بعد العملية.

وسألني الدكتور عما بي فلم أستطع التعليل. إني قد شاهدت  
كثيراً من عمليات التشريح وطالما رأيت جثثاً تقطع أمامي وبطوناً  
تبقر فلم أتأثر ولكنها كانت أجساداً لأحياء فيها؛ أتراني شديد

التأثير لم رأى الأجسام الحية تعامل معاملة الجمادات ؟ أم أنها فضلة  
من رائحة البنج عقب بها جو قاعة العمليات فبلغت خياشيمي إذ  
دنوت من جسم الفتاة ؟

وأعادنى الهواء الطلق خارج القاعة إلى نشاطى وجلسنا ننظر  
فى مكتب الحكيمباشى ، ونشرب قهوة طلبها لنا « الباشمرجى » .  
إلى أن حضر رئيس الدار فقادنا مرحباً إلى « عنبر » المصاب .  
وجلسنا معه خلال ممرات ازدحمت بالأسرة إذا لم تكف  
« العنابر » لإيواء هذا القدر من التعساء . ورأينا المرضى الناقهين  
من أصحاب « الزعايط » الزرقاء يتناولون فى نهم حساءهم فى أوان  
صغيرة من « الألومنيوم » ، وينظرون إلينا ومعنا الحكيمباشى كما  
ينظر القرودة فى حديقة الحيوانات إلى الحراس مع كبار الزائرين .  
ووصلنا إلى سرير « قمر الدولة » ، فوجدناه ممدداً لا يتحرك .  
ونزع الحكيمباشى من رأس السرير تلك الرقعة التى يدون فيها  
تطورات مرضه وقرأ علينا تشخيصات طيبة لم أحفل بها الساعة  
وقلت :

— الغرض ، يمكننا استجوابه حالا .

فأجاب الطبيب فى صوت خافت :

— أظن مع الإختصار السكلى .

ثم دنا من المصاب وناداه في هدوء ففتح عينين ذهب بريقهما كأنهما لا يريان ولا يثبتان على شيء بعينه . فاقتربت من الرجل وسألته :

— يا قمر الدولة ! من ضربك ؟

فلم يجب . وأعدت عليه السؤال ففتح شفثيه ولم يقل شيئاً . فألححت عليه فبذل جهداً ظاهراً وقال كلمة واحدة :

ريم !

فدهشت قليلاً والنفت يمنة ويسرة فوجدت المأمور وسكرتير التحقيق شأنهما شأني في الاهتمام بالأمر والعجب له فنظرت في وجه المصاب وقلت :

— وضح غرضك يا قمر !

فلم يجب .

— قصدك أن ريم هي نفسها . . .

فلم يبد حراكاً . . .

— يا قمر ، يا علوان ، تكلم . لا بد أنك تتكلم . كلمة واحدة .

الضارب ! من الضارب ؟

ولكننا نطلب المستحيل . فقد أغمض عينيه وقد تفصد جبينه

عرقاً ، فغذبنى الحكيمباشي من يدي بعيداً وقال :



كفاية ١

فطرت إلى المأمور يائساً :

— كفاية ١٩ —

وهل ظفرنا نحن بشيء ؟ لقد كان موقفنا عند دخولنا أوضح  
منه الآن إنها كلمة لفظها هذا الفم الجاف بعد جهد، ليته لم  
يلفظها...

١٤ أكتوبر ...

تركت المأمور يذهب إلى شأنه . وعدت إلى مكنتي بدار النيابة .  
وعلم المساعد بعودتي فحضر وهو كالمشتاق إلى رؤيتي ولكنه عاتب  
على إغفالي إياه في واقعة الليل . فتنهت إلى أنى حقيقة نسيت كل  
النسيان إن اهتمامي باصطحاب المأمور تلك الليلة قد ألهاني ولا شك  
عن كل شيء آخر . ومع ذلك فهي حادثة تافهة لم يستفد منها غير بطن  
حضرة المأمور . ولم يقع ضررها إلا على جيب حضرة العمدة آه  
لهؤلاء العمدة ! لشد ما أرثى لحالهم ! وظهر « فراش » المحكمة  
الحاج خميس . فطلبت إليه كوباً من الشاي الخفيف . والتفت إلى  
مساعدى فأقبل على يحدثني كمن يتحدث لمجرد الحديث ، وكأني به  
جوعان كلام إن الوحدة كادت تقتله أثناء غيبتى عنه . لقد سئم  
الريف . إنه لا يجد هنا قهوة واحدة يليق أن يدخلها مثله . اللهم إلا  
دكان ذلك البدال الرومي « طناشى » وضعت أمامه مائدتان من  
الخشب وكرسيان من القش . وقد أطلق عليه الأهل إلى اسم « الخنارة » .  
وحتى هذا الرومي قد ارتدى جلباباً بكباب الفلاحين فلم يعد شيء  
ينم على أنه « أفرنجى » غير لون العينين والشعر . أين يتنزه ؟ وأين  
ينفق وقته ؟ هذا الشاب الذى جاء من العاصمة منذ أيام حيث الأنوار  
والملاهى والضجيج ؟ إنه الآن لا يكاد يرى غير مبان قليلة أكثرها  
منهدم غير هذه « الجحور » المسقفة بحطب القطن والذرة بأوى

إليها الفلاحون . إنها في لونها الأغمبر الأسمر لون الطين والسماد  
وفضلات البهائم ، وفي تكديسها وتجمعها ، كقوراً ، و « عزباً » ،  
مبعثرة على بسيط المزارع ، لكأنها هي نفسها قطعان من الماشية  
مرسلة في الغيطان . هذه القطعان من البيوت التي تعيش في بطونها  
ديدان من الفلاحين المساكين هي كل ماتقع العين عليه في هذه  
البقاع . ويزيد في كربه هذا السكون الذي يهبط البلدة منذ  
الغروب . فلا يسمع بعدئذ غير خوار الجاموس ونبج الكلاب  
ونهبق الحمير ونحيب السواقي والشواديف والكباسات . وأصوات  
بعض الأعيرة النارية يطلقها في جوف الليل الحفراء الحصوصيون  
أو النظاميون أحياناً إرهاباً للغير أو تشجيعاً لأنفسهم . إن مساعدي  
يريد دواء لهذا الضيق . وهل من دواء للريف غير الزواج أو السير  
المعوج أو المطالعة وتحرير المذكرات كما أفعل أنا كلما وجدت إلى  
ذلك سبيلاً ؟ وفكر صاحبي في الاختلاف إلى النادى . إنه لا يعلم  
شيئاً عن نادى هذا المركز . إنه اسم يطلق على حجرة في منزل  
عتيق يصعد إليها بسلم من خشب . وهي تضاء بمصباح غاز . أى  
« كلوب » ، وهذا « الكلوب » هو وحده الشيء الجدير بالاحترام في  
الحجرة . أما أهل النادى فهم بالطبع رجال الإدارة وطبيب المركز  
وبعض الأعيان والموظفين وصاحب الأجزاخانة . ولا يشغل  
هؤلاء في ذلك المكان غير لعب الورق « واطاولة » واعتياب للناس

فهل يليق بممثل النائب العام في هذا المركز أن يندس في هذه الزمرة !  
لقد قلت لمساعدى أنى «شخصياً» أفضل أن يكون عضو النيابة بعيداً  
عن كل هذا إذا كان يريد أن يبجله الجميع . وأنا لن أنسى ذلك اليوم  
الذى دعانى فيه رجال الإدارة إلى حفلة عشاء في ذلك النادى مع  
القاضى المقيم تكريماً لزميل لهم منقول . ولم أستطع الاعتذار  
فذهبت وإذا زجاجات الوسكى على المائدة بجوار الطعام ، وقد  
ملاوا كأسى وكأس القاضى ، ولم يفظن القاضى لنفسه فشرب  
وأكثر ، وجعل يثرثر ويضحك حيث لا موضع للكلام والضحك  
وعندئذ مال على المأمور وقد سكر هو أيضاً وألقى في أذنى ضاحكاً:  
« البك القاضى فقد وقاره ! ، فلم أرد أن أسمع أكثر من ذلك .  
فانسملت منصرفاً إلى بيتى فى هدوء دون أن يشعرنى هؤلاء المنتخبون  
فى كووسهم . منذ ذلك اليوم وأنا لا أضع قدماً فى هذا النادى .  
واقتنع مساعدى بكلامى . وأردت أن أزيده بياناً ليزداد حرصاً ،  
ولكن الحاج خميس دخل حاملاً كوباً لم يكده يقع نظرى عليه  
حتى صحت .

— تسقىنى أحسن حبر « كوبيه » ، وتخلص !

— صل على النبى ياسيدنا البك ! أتأبى لى عشرين سنة فراش

بحكمة ، وورد على أصناف الأهالى والموظفين تصدق بالله ما ينفع

فى المحاكم إلا شأى مرتطعم « الفورنيه » !

فترددت قليلاً ثم لم أجد مناصاً وقلت :

— شأى المحاكم وشغل المحاكم كله مر والسلام ، هات !  
ووضع الرجل الكوب الزجاجى أمامى وانصرف . وماكدت  
أرشف رشفة حتى فتح الباب ودخل عبد المقصود أفندى رئيس  
القلم الجنائى بروحه الذى لا استخف له ظلاً وقال :  
عندنا من نوع التلبس أربع قضايا :  
— هات !

فذهب وأرسل إلى العسكرى القادم « بالمحاضر ، والمقبوض  
عليهم وأخذنا نطالع الأوراق قبل أن نستدعى أمامنا المتهمين .  
وجعلت من نصيبى ثلاث قضايا واستصغرت ملفاً ألقيت عليه  
نظرة سريعة وأعطيته مساعدى وأنا أقول له « سرقة كوز ذرة »  
لن نعترك على أسهل من مثل هذه السرقة . سل هذا المخلوق فستجده  
معتزلاً فى أمان الله ! » . وبدأ الاضطراب قليلاً على المساعد : فهذه  
أول مرة يستجوب فيها متهماً . وتناول من يدى المحضر وجعل  
يقرؤه كلمة كلمة . ويعيد قراءة هذه القسام ، التى لم تزد على الخمس  
وفرغت أنا من أمر نصيبى البالغ أضعاف ما عنده ، وهو مازال  
منهمكا فى إعداد ملخصات وافية . وملخصات للملخصات ، وأسئلة  
معدة إعداداً كأنها قنابل ستلقى فى صدر سارق « كوز الذرة » .  
فكنمت ضحكى . أنا أيضاً فى مستهل حياتى القضائية كنت أفعل فعله .

ولقد قسا على القدر أشد مما قسى على هذا الشاب فنكبتني بقضية تزوير  
معقدة كانت هي أول عهدي بالتحقيق . ولست أنسى اضطرابي  
وقتئذ، وقد مثل أمامي المتهم المزور بطول باعه وذلاقة لسانه واعتياده  
المشول أمام القضاة ، فذهبت الأسئلة المجهزة من رأسي ولم أدر  
ما أقول ، وانتظر الرجل واقفاً في هدوء أن أفتح فمي أو يفتح الله  
علي بسؤال ، وتصيب مني شبه عرق وأنا أرى المتهم أحسن مني حالا  
وأربط جأشا وأقوى امتلا كالأمره ، وخيل إلى أنه يسخر مني في  
دخيلة نفسه . وكان كاتب التحقيق رجلا قديما ذامران طويل ،  
صادف في حياته ولاشك عشرات من المساعدين الجدد أمثالي .  
عرف ما بي فأسرع يعاونني ويلقنني ما ينبغي أن أبدأ به من أسئلة  
وأنا أتقبل منه المعاونة بأنفة ركبرياء دون أن أظهر حاجتي إلى  
تدخله . وأمثال هذا السكر تير الهرم من ذوى الحق المغموط  
والفضل المجهول كثيرون ، وقد سمعت أحدهم يقول لي مشيراً إلى  
بعض من كبار رجال القضاء : « علينا هم الشغل ومشوا وارتفعوا  
وبقوا قضاة ومستشارين والواحد منا واقف في مطرحه لا يكبر  
ولا يصغر ، زى جحش السبخ ، ! تذكرت كل هذا وأنا انظر إلى  
وجه مساعدي . ورأيت أن أتعهد خطاه الأولى بنفسى ، فطلبت  
إليه أن ينحى جانبا هذه الملخصات ، وأن يضغط بأصبعه على الجرس  
ففعل وظهر الحاجب بالباب فأمرته بإحضار المتهم الأول ، فدخل

فلاح كهل قد برز من صدره شعر أزرق أشيب كأنه شعر ضبع مسن ، وقلت للمساعد أن يوجه ما يحضره من أسئلة ولا يخاف ، وأنا أعينه إذا توقف فاحمر وجه الشاب وتردد ، ثم تجلد ونظر إلى المتهم وسأله :

— أنت سرقت كوز الذرة؟

فأجاب الشيخ لفوره من جوف مقروح :

— من جوعى !

فنظر المساعد إلى وقال فى لهجة الانتصار :

— اعترف المتهم بالسرقة ، !

فقال الرجل فى بساطة :

— ومن قال إنى ناكر ، أنا صحیح من جوعى نزلت فى غيظ

من الغيطان سمحت لى كوزا . . .

ووقف القلم فى يد المساعد ، ولم يعرف ماذا يسأل بعد ذلك .

والفتت إلى يستنجدنى ، فنظرت إلى الرجل سائلا :

— سين ، يارجل لماذا لا تشتغل ؟

— جيم ، يا حضرة البك هات لى شغل وعيب على إن كنت

تأخر . لكن الفقير منا يوم يلقى ، وعشرة ما يلقى غير الجوع .

— أنت فى نظر القانون متهم بالسرقة .

— القانون يا جناب البك على عيننا وراسنا . لكن برده القانون

عنده نظر ويعرف أنى لحم ودم ومطلوب لى أكل

— لك ضامن يضمنك ؟

— أنا واحد على باب الله .

— تدفع كفاله ؟

— كنت أكلت بها .

— إذا دفعت يارجل خمسين قرشاً ضمان مالى يفرج عنك فوراً .

— خمسين قرش ! وحياة راسك أنا ما وقعت عيني على صنف

النقدية من مدة شهرين . التعريفة نسيت شكله ، ما أعرف إن كان  
لحد الساعة ( مخروم ) من وسطه والا سدّوه .

فنظرت إلى مساعدى وأملت عليه نص القرار :

— يجبس المتهم احتياطياً أربعة أيام ويجدد له ويعمل له

فيش وتشبيهه . . إسجنه يا عسكري !

فقبل الرجل كفه وجهاً وظهرأ حامداً ربه :

— وماله . الحبس حلوا . نلقى فيه على الأقل لقمة مضمونة .

السلام عليكم !

وخرج الرجل يدب وقد وضع فى معصميه القيد . واطمان

مساعدى واستراح باله بذهاب متهمه ، وطلبت القضية التالية . فظهر

العسكري ومعه آخر وفتح باب مكتبي على مصراعيه وجذب إلى داخل

الحجارة أكثر من ثلاثين رجلاً وامرأة وولداً قد شدوا فى جبال



الليف . إذ لم يجدوا في المركز لكل هذا العدد قيوداً حديدية فما  
تمالك أن صحت لمنظرهم :

— الله أكبر ! مواشى طالعة سوق السبت ؟ حل الجبال  
يا عسكرى !

فقال الحارس وهو يحل بأسنانه عقدة جبل .

— فتشنا ياسعادة البك بيوتهم وجدنا فيها المنوعات . وبقى  
غيرهم من أهل الناحية تحت التفتيش والقبض بمعرفة حضرة  
الملاحظ وأورطة المهجاة !

فأدرت بصرى في هؤلاء الآدميين . واستعدت في مخيلتي  
ما قرأته الساعة عن تهمهم في الأوراق التي أمامي وقلت :

— بمنوعات !

فاستدرك الحارس !

— الملبوسات يافندم .

نعم إن ما قرأت الساعة هو أن سيارة كبيرة كانت تحمل أكياسا  
ضخمة مملوءة بمختلف الملابس القطنية والصوفية من معاطف وستر  
وسراويل ، وكذلك أنواع من الأحذية الجلدية لحساب متجر في  
القاهرة من المتاجر الشهيرة . وكانت تجتاز ليلا بكل هذا جسر التربة  
المحاذية لدائرة الناحية ، فسقط منها في الماء كيس كبير مغمم بألوان  
الملابس ، ولبث الكيس في أعماق التربة حتى انخفض منسوبها

وانحسر الماء عن البضاعة فهرعت تلك البلدة العارية إلى ذلك الكنز  
الذي لا يشابه كل الكنوز . وتسابقت الأيدي إلى الكيس الرائد  
في الطين تجذب من بطنه ما تصل إليه ، فإن كان سروالا من الصوف  
لبس في الحال فوق الجلباب الأزرق وإن كان معطفا من الجوخ  
دخل فيه الرجل (بحرامه) وإن كان حذاء لامعا وضع في الأقدام  
بغير جوارب . ومضت البلدة تجرى في الطرقات فرحة مهللة :  
« الكساوى في البحر الكساوى في البحر .. » إلى أن رأهم رجال  
الحفظ واستكثروا عليهم النعمة وعدوها بالنسبة لهم « ممنوعات »  
واستغربوا أمرها واستكشفوا سرها ...

ورأيت أول الأمر أن أسألهم جملة ، علني أظفر منهم بأعتراف  
يسر على مهمتي فألقيت عليهم نظرة شاملة :

سرقتم الملابس ؟

فأجابني من بينهم صوت عميق رزين :

— أبدا والله ما سرقنا ولا نعرف السرقة ، البحر رمى علينا

الكيس وكل واحد منا طال نصيبه .

فقلت للرجل من فوري :

— نصيبه؟! هو الكيس ملك البحر والاله أصحاب خواجات!

فأجاب الرجل في صوته العميق الهادى .

— راح من بالنأ نأله أصحاب يا حضرة البك ربنا يعلى مراتبك !  
إرأف بحال الفلاحين المساكين !

— المسألة مسألة قانون والقانون صريح : إن كل من وجد شيئاً  
ملوكاً للغير وحفظه بنية امتلاكه يعامل معاملة السارق . فهمم ؟  
— فهنا يا حضرة البك . لكن . . . بق . . . الكساوى كانت  
قدام نظرنا ورمها البحر علينا والواحد منا من غير مؤاخذه  
عريان . . .

— أنت ياراجل فاكر الدنيا فوضى . وإلا فيه قانون وحكومة  
ويظهر أن الرجل لم يستطع صبراً فقال :  
— بق هي الحكومة لامننا ولا كفاية شرها ؟ لا كستنا  
ولا تركنا نكسى !

— أنا مضطر إلى أن أحبسكم  
— يا جناب البك . أتم فتشتم دورنا وسجتم الكساوى منا :  
والعيال الفرحانة عادت تبكى ، ورجعنا لأصلنا لالنا ولا علينا . بق  
الحبس له لزوم ؟ !

— أفرج عنكم بضمان مالى .  
— مالى ؟ الفلاحين عرايا يا حضرة النايب !  
— تفضلوا من غير مطرود ! دماغى وجعنى والمناقشة مع  
مثالكم ضياع وقت . القانون صريح وأنا مقيد بنصوص أشد من

الرجال الموضوعه في أيديكم . المسأله عندي قبل كل شيء . مسأله  
قانون . . . يحبس المتهمون كلهم احتياطياً أربعة أيام ويجدد لهم  
ويعمل لهم فيش وتشبيهه ، إسحبهم يا عسكري !  
نفر جوا جميعاً في صف طويل وفي ذيلهم رجل يقول هامساً :  
— يحبسونا لأن ربنا كسانا !

وهذا المكان . ولكن رائحة كريهه انتشرت في الحجره . فناديت  
الحاجب وأمرته بفتح النوافذ ففعل وهو يعلن بصوت خافت هذا  
الجاموس الأبيض الذي لا ينبغي إدخاله حجرات الحكومه ، وحانت  
مني التفاتة إلى مساعدي فوجدته مطرقاً مفكراً . فداخلى حب  
استطلاع أن أعرف ما بنفسه الآن . أترأه قد تأثر لشيء ! أترى دقة  
الحسن ورقه الشعور التي جاء بها كما جئنا كلنا في مبدأ عملنا الحكومي  
بالريف ما زالت حية أم أنها في طريق الموت . ولكن طرقة عصا  
شديدة ضربت الباب عرفت فيها ضربة المأمور . ودخل صاحبنا  
يلهث ويصيح :

— البنت ريم

— ما لها ؟ !

قلتها رغم اعنى في لهفة فاستراح المأمور على كرسي وأنا أنتظر  
الكلام من فمه بصبر نافذ غير أنه نظر إلى الحاجب بالباب :  
— إسقني وحياة عينيك !

وأخرج منديله الحرير الصناعي من كفه ومسح وجهه ورأسه  
وأنا على أحر من الجمر. وأخيراً التفت إلى وقال:

- اختفت!

ف نظرت إليه ملياً:

- تتكلم جد!

- هربت مع الشيخ كلب

- الشيخ عصفور؟!

- نهاره أسود!

- والعمل؟

- أمرت فرقة المهجاة تقوم في الحال تقتفي الأثر في جميع

الطرق الزراعية...

وجلسنا في صمت. وقد شرد ففكر كل منا...

١٥ أكتوبر . . .

لم يمكث المأمور عندى طويلا ، فقد ذهب سر يعاً وانقطعت عنى أخباره ، وطلبته كثيراً بالتليفون فى المركز فلم يدر أحد أين مقره كل ما عرفوه عنه أنه خرج فى البوكس فوراً ، مع المعاون ولم يعد ، وانتظرتة طول نهارى لأعرف منه . . . ؟؟ ولكن النهار . انقضى وغربت الشمس وعيل صبرى ، فمشيت بنفسى إلى المركز فلم أفر بطائل ، وقال لى قائل : لعله عرج على النادى فهذا ميعاد جلوسه فيه . فما ترددت ، وتوجهت إلى النادى فاستقبلنى أعضاؤه دهشين أول الأمر ، ثم هرعوا يقدمون إلى الكرسى « السليم » الوحيد فى تلك الحجره زياده فى الاحتفال فى فسألت عن المأمور : فقالوا إنهم لم يروه وأنهم يعجبون لغيابه عن النادى حتى هذه الساعه فلما علموا منى أنه خرج من الصباح مع المعاون فى « البوكس » ولم يعد ، صاحوا جميعاً من فم واحد .

— لاحول ولا قوة إلا بالله !

وصاح صوت من بينهم :

— ضعنا وضاعت فلوسنا والعوض على الله !

ولم أفطن إلى مرادهم فى مبدأ أمرى ولكن التفاتة حانت منى إلى المائدة والورق المطروح عليها فى انتظار اللاعبين . ففهمت للفقور وتذكرت ما قيل لى من أن المأمور لم يعرف الخسارة قط فى هذا

النادى ، وأنه اعتاد فى أوائل كل شهر أن يربح كل مرتبات الموظفين ، ثم يظل طول الشهر يقرضهم ما يحتاجون إليه للأكل والمعاش حتى لا يموتوا جوعاً إلى أن يقبضوا ، فيلاعهم من جديد ويأخذ مرتباتهم الجديدة ويقرضهم ما يعيشون به طول الشهر ، وهكذا دواليك وقد اعتادوا هذه الحياة ورضوا بها ، وهم يعززون أنفسهم بقولهم : سواء أكانت النقود فى جيبنا أم فى جيب حضرة المأمور فالنتيجة واحدة . . . شىء واحد يقلقهم ويخيفهم أشد الخوف ، هو خروج المأمور بأموال البلدة « للملاعبة » مركز آخر . فالمأمور يضجر أحياناً من ملاعبة هؤلاء المفلسين وقد تجردوا ، فينتخب تارة نفرأ من خيرة اللاعبين وينتقلون لمنازلة المركز المجاور كما تنتقل فرق كرة القدم . . . وتارة يخف المأمور بمفرده أو مع معاون إلى أقرب بلدة يلعب « دورين » ويرجع وتارة يستقبلون فى ناديتهم « منتخباً » قادمأ من بلاد أخرى . هنا فى مثل هذه المقارعات الحامية الوطيس بين البلدين وبلدة يتعرض للخطر جيب المأمور ، أعنى مرتبات المركز . . .

على أنى لم ألبث أن أدخلت الاطمئنان على قلوبهم بقولى لهم : إن المأمور قد ذهب فى غالب الظن لعمل يتعلق بقضية تشغل بالنا . فهدأوا وجلسوا لحظة ساكنين أدبأ واحتشامأ ثم أخذوا يتحدثون ويثرثرون قليلاً أثناء شرب القهوة إلى أن قال أحدهم فى نبرة الترحيب :

— ربنا عوضنا خير بتشريف البك النايب ، لأن حضرة القاضي  
انقطع عن النادى من زمن . . . بسبب سوء التفاهم ! ..  
فنظرت إلى المتكلم وقد بدأ فى عيني المتسائلة مادعاه إلى الاسترسال .  
— أى نعم ، سوء التفاهم بينه وبين البك المأمور . وأمعن فى  
الثرثرة فقال :

المسألة أصلها خلاف بين السيدات مع بعض . الست حرم  
القاضى واقعة مع الست حرم المأمور .  
فأطرقت صامتاً ، وظن الحاضرون أنى رغبة إلى الإصغاء ..  
فانطلق أحدهم يقول :

— آخر أخبار أنهم طلغوا البعض فوق الأسطح ونزلوا فى بعض  
« رده » من النوع « النضيف » امرأة المأمور إغاظة فى صاحبها  
راحت لبست سترة زوجها الرسمية بالتاج « والضبورة » وغطت  
رأسها من غير مؤاخذة بالطرحة أم « ترتر » وقالت لها بالصوت  
العالى : « أتم حوالكم إلا قلة القيمة لايمشى وراكم إلا حاجب  
« ربايكيا » نص عمر مكسر صابغ شعره . لكن المركز كله بالخضر  
والعسكر تحت أمرنا ، يضرب لنا سلام . قامت امرأة القاضى  
نزلت ولبست لها الوسام الأحمر عهدة الحكومة فوق الفستان  
النبى المسخسخ وطلعت تقول لها : « قطع لسانك وليه سفينة !  
أتم صحيح مالكم امارة إلا على غفيرين مغفلين ، لكن من فى



البلد كلها يقدر يحبس ويشنق ويقول: حكمت المحكمة غيرنا؟ ..  
ولقد أحسست شيئاً من الحرج في استماعي إلى هذا الكلام فما  
إن فرغت من شرب القهوة حتى وضعت الفنجان على المائدة في  
هدوء ونهضت في الحال مسلماً مودعاً وانصرفت  
سرت في الطريق إلى منزلي أفكر. ولقد تمهلت في خطاي  
إذ لم أجد في نفسي رغبة إلى الاحتباس بين جدران أربعة مع  
أكداس من الشكاوى المتأخرة أضع أنفي في تراب ملفاتها وإن  
رأسي بعد لمشغول بغياب المأمور؛ أتراه قد وجدها؟ .. أين ذهب  
بها إذن؟ والشيخ عصفور ماذا جرى له؟ العجيب في الأمر  
أن يستطيع هذا العصفور أن يختطف هذه الزنبقة ونحن عنه  
غافلون! الحقيقة أننا لم نفطن إليه، لقد استطاع أن يختطفها من  
يد المأمور في خفة ومهارة. نعم، من يد حضرة المأمور لا من  
يدي أنا. ولكن الأعجب من هذا أن تطيعه الفتاة وتذهب معه  
راضية، فهو من غير شك لم يكرهها ولم يحملها قوة واقتداراً.  
ماسر هذا التأثير وهذا النفوذ العجيب وهو لا يكاد يعرفها ولم يكن  
بينهما لقاء طويل؟ أتراه قد أغراها بالهرب؟ ولكن ما الذي  
يدعوها إلى الهرب؟ أهي مجرمة؟ أهذا الجمال الرائع يحرم! أم نحن  
المجرمون إذ نظن السوء بالجمال؟ إن من العسير على نفسي أن أتصور  
الجمال غير مقترن بالفضيلة. الجمال الحق والفضيلة الحق شيء واحد.  
ولكن المصاب قمر الدولة عندما سئل عن الضارب فاه بكلمة

واحدة مازال جرسها الباهت يرن في أذني : « ريم ، ولكن ما بال الفتاة صرخت وذهلت إذ علمت بالجناية أول مرة ؟ أهو تصنع وتمثيل ؟ لقد خلعت آهتها قلبي خلعا في تلك الليلة وما أشك في أن المأمور وهو على الأقل ذو خبرة بالقرويات قد تأثر مثلما تأثرت فإن كان مكر مثل هذه البنية الرقيقة يجوز على أمثالنا فأحرى بنا أن نوضع في مرابط البقر لأن نوضع أمامنا نفوس الناس نستطلع مجاهلها ونستكشف أسرارها . وأهنتي هذه الخواطر وحملتني قدماى من دون قصد إلى المستشفى ومررت ببابه الكبير ووقعت عيني الالهية على ذلك المنظر المعتاد من الأهالي والنساء والصبيان الجالسين القرفصاء فلم أحفل بهم . ولكني لم أكد أغادر هذا الجمع حتى وقمت دهشا . فلقد لمحت تحت الجدران على بعد قصة من الناس الشيخ عصفور جالسا إلى الأرض وهو مطرق ينكت التراب بطرف عوده ويجواره الفتاة وقد أسندت رأسها إلى الحائط تعباً وإعياء أو كآبة وحرناً فهمت كل شيء . إنها جاءت المستشفى تسأل عن حال المريض . وإنما اتخذت من الشيخ الأخضر دليلاً وصاحباً ومعيناً ؛ وكان ينبغي لذكائنا أن يتجه في بحثه إلى هذه الجهة القريبة . ولكن ما العمل الآن ؟ إنى بمفردى ، ولاسلطة لى بغير رجال الحفظ ألقى إليهم الأوامر . لا بد إذن من الذهاب من فورى إلى دار المركز لأبعث أحد العساكريأتى بهما . وأسرعت في السير قبل أن يعلما برؤيتي لهما فيهربا خوفاً منى وابتعدت عن

المكان وأنا أقول في نفسي : لاشك أن الشيخ عصفور يعلم الآن كل أسرار القضية . أو أنه على الأقل قد اطلع على سر الفتاة وغاص بعينه البراقطين في بحار نفسها العميقة المظلمة . ولكن هل يفضى هذا الشيخ إلينا بشيء ؟ إنه هو نفسه سر مغلق ولست أدري أهو حقا أبله أم خلف هذا الوجه الساذج . . . ؟ ؟ وكنت قد بلغت المركز . ورأيت بيابه « البوكس فورد » ، فعلمت أن المأمور قد عاد فأسرت وافتحمت عليه حجارته فألفيته ملقى على « الكنبه » ، وقد خلع طربوشه وأمسك القلة الفخار يجرع منها والعرق يتصبب من جبينه فلم يكدير أني حتى صاح :

— المسألة وحياتك فيها شغل سحر ! لا بد أن الشيخ المكاب سحر البنت . تصور أننا من الصبح لغاية ساعة تاريخه ما تركنا في دائرة المركز غيط ذره ولا زراعة قصب ولا ساقيه ولا طاحونة ولا كافر ولا دوار ولا ترعة ولا أرض ولا سما ولا طريق زراعي ولا جهنم حمرا إلا قلبناها وفنشناها شبر شبر . لو كانوا انقلبوا طير على الشجر أو سمك في البحر كنا وجدناهم لكن المصيبة أنهم .  
فما تمالكت أن قاطعته :

— المصيبة إنهم على بعد خطوة من هنا يا حضرة المأمور !  
فوضع المأمور « القلة » على الأرض ونظر إلى فاغرا فاه :

— إليه ؟

فقلت في شيء من الحدة :

— طير إيه وسمك إيه!! الرجل والبنت قدام باب المستشفى من ساعتها

— المستشفى الأميرى ١٩٠

— قم يا شيخ قل لواحد عسكري يروح يناديهم من هناك،

بلاش أمور...

ولم أتم بقية عبارتي، فقد نهض المأمور فرحاقبل أن يسمع مني

وصاح بصوت جلجل في صحن المركز :

— يا شاو يش عبد النبي!

جاء من ناحية الاسطبلات رجل عملاق في قميص وسراويل

بيضاء ورفع يده بالسلام وقال :

— أفندم سعادة البك

— قم حالا مع نفرين للمستشفى الأميرى ومعكم قيد حديد...

فتردد الرجل وقال مقاطعا :

— « أودة التبن » مفتوحة ياسعادة البك والأنفار جارين

العليق والفرش للخيل .

فصاح فيه المأمور :

— يا حصان نفذ الأوامر إن شاء الله عن الخيل ماباتوا في

ليلتهم . قلت لك قم في الحال

— حاضر يا أفندم!

— وتركت المأمور يفهم مرؤوسه ما يتبع . وانصرفت إلى

مكتبي بعد أن أوصيت المأمور أن يلحق بي مع المقبوض عليهما .

فأنا لا أحب مطلقاً التحقيق في دار المركز وهي ليست داري فرب  
المركز هو المأمور . ولا أرضى لنفسى أن أكون في كنفه أثناء  
عملي . خصوصاً في هذه القضية وأمام هذه البنية . وذهبت على عجل  
وأرسلت من يستدعى كاتب التحقيق . ولم يمض قليل حتى كنت في  
حجرتي جالساً إلى مكتبي أطيل النظر إلى الباب نافذ الصبر منتظراً  
قدوم الفتاة كأنه موعد لقاء .

وسمعت نقرأ على الحجرة . ودخل المأمور يسألني للفور عن  
المطلوبين فأجبت أنني لم أر أحداً بعد . فجلس وهو يقول إنه أرسل  
من يأتي بهما . وجعل ينظر هو أيضاً إلى الباب ويفتل شاريه .  
وجاء كاتبى بأوراقه ونشرها أمامي . واستعد كل منا . وإذا بجلبة  
ترتفع في الردهة وصوت أقدام ثقيلة وصلصلة حديد ، وطرق الباب .  
علينا ، ثم فتح وألقى بيننا الشيخ عصفور وحده مكبل اليدين وخلفه  
الباشجاويش يحمل له عوده الطويل فوقه في نفسى قلق . وشعرت  
بوقع مثله في نفس المأمور . فقد ابتدر الباشجاويش صائحاً :  
— والبنت ؟

— وجدنا الرجل وحده فقبضنا عليه يافندم .

— وحده . ١١٦ .

قالها المأمور كما قلتها أنا في نفس الوقت ، وقد اختلط في نفسي  
الأسف بالعجب والغضب . وخرج المأمور عن طوره فنهض  
وصرخ في وجه الشيخ عصفور قائلاً :

— البنت . ١٤ —

فلم يبد الرجل حراكا . وأجاب في هدوء رصين :

— بنت مين !

فنظر إليه المأمور نظرة شذراء وقال :

— إنك يارجل شارب حشيش . ١٠؟ شغل الحشيش أنا أفهمه طيب !!

وأراد أن يلكمه بقبضته القوية فمنعته من ذلك ، وأمرت الشيخ

أن يدنو مني فدنا فسألته في رفق :

— ريم كانت معك !

فأجابني الرجل من غير تردد :

أبدأ .

فأدركت أن عين الرجل البراقة قد لمحتني عند مروري بباب

المستشفى ، وفهم بذلك ما سيكون فأخفى الفتاة في الحال ، أو أن

الامر غير ذلك وأن عيني هي التي خانتني فلم تسكن ريم إلى جانبه ،

وأن خيالي السابح في جو هذه الفتاة قد ألقى صورتها وأثوابها على

امرأة أخرى من الفلاحين المنتظرات بالباب كل هذا جائز ، ولكن

أين ذهب ريم ! ولماذا أتهم بصرى ولا أتهم هذا الشيخ المخاتل ؟

ومن هو أولاً هذا الرجل ؟ وصحت فيه من فوري قائلاً :

— تعال يارجل أنت !

— محسوبك :

— من أنت ؟

فنظر إلى الرجل نظرة من لم يفهم السؤال . فألقيت عليه العبارة  
من جديد في شدة وقوة ، فقال :

— أنا ... أنا عصفور ، ألقط الحب فوق التراب ، وأعبد  
الرب تحت التراب !

— تكلم جد يا رجل . اسمك ؟  
— عصفور .

وأشار إلى يديه وفيها القيود وصاح :

— أطلقوني ! من حب النبي يطلقني ...

فأمرت العسكري بفك القيد من يديه ، وسألته في صرامة :  
— صنعتك ؟

فتردد الشيخ طويلا وسكت لحظة ، ثم لفظ آهة من أعماق قلبه  
ورجع برأسه إلى الوراء وجمدت عيناه كأنها تنظران إلى شيء  
لا وجود له في عالم الحس والحقيقة ورفع عقيرته بالغناء :

أنا كنت صياد

وصيد السمك غِيَّه

نزلت بحر السمك

أصطاد لي بِنِيَّه

وعجني شكل السمك  
في البحر حواليه  
واحده بياض شفتي  
والثانيه بلطيه...  
فقاطعها المأمور صائحاً :

— مفهوم ، مفهوم ، والملي غرقت في الرياح من سنتين كانت  
البياض والا' البلطية . ؟؟

فلم يجبه الشيخ ولم يلتفت إليه ومضى يغني :  
« واحد بياض شفتي  
والثانية بلطيه  
والثالثة من بدعها  
سحرت مراكبية ،

وتهد في العبارة الأخيرة واتخذ صوتها فيها نبرة عجيبه ذات معنى  
ارتجفت له قليلاً ، ونظرت من طرف خفي إلى المأمور فرأيتة قد  
اختلجت عيناه ، ولكنه تجلد وتحامل وقال للرجل :

ومن هم المراكبية ١١٤

فأطرق الرجل وصمت صمناً عميقاً . واست أدري ، أهو أيضاً  
خيال مني أو حقيقة ما اعتراني من شعور بأن هذا الشيخ قد فهم  
وأنه قد أدرك ما بنا منذ اللحظة الأولى ...



١٦ أكتوبر . . .

لم نستطع أن نعرف شيئاً عن الشيخ عصفور ، ولم نستطع كذلك أن نقبض عليه ، فهو لم يرتكب أمراً يقع تحت نصوص القانون فأطلقناه ، وخطر ببالنا أن ندفع في أثره أحد المخبرين عسى أن نستكشف مخبأ الفتاة . . . ولكن أين المخبر السرى الذى يخفى على الشيخ عصفور ؟ إنه يعرف كل رجال الحفظ معرفة أكيدة ، وهو الذى قام معهم فى الوقائع مئات المرات وسهر معهم وأكل وشرب وغنى وأنشد ، ودلهم على مخبأى الأسلحة ، واقتنى معهم آثار المجرمين إنه يكاد يحسب من أسرة « البوليس » تركناه ينصرف فى سلام . وقد اكتفى المأمور الحائق بأن شيعة إلى الباب بصفحة على قفاه شفى بها غليله . وانصرف بعد ذلك كل منال إلى شأنه : المأمور إلى ناديه ، وأنا إلى منزلى حيث خلعت ملابسى وخلوت إلى نفسى ، وأخرجت كراسه يومياتى ألقى فيها هذا الكلام الذى لا أجد ما أفضى به إليه فى هذا الريف . إن القلم لنعمة لأمثالنا ممن كتبت عليهم الوحدة ، ولكن القلم كالجواد ينطلق أحياناً من تلقاء نفسه كالطائر المرح وأحياناً يحرن ويثب على قدميه ويأبى أن يتقدم كأن فى طريقه أفعى رافعة الرأس وهو الساعة يهتز فى يدي ويرقص لا يطيعنى كأن شيئاً يخيفه أو يتقصيه عن مروج الأحلام .

فنظرت إلى خزانة ملابسى الخشبية فإذا فأر أسود على رأسها واقفا  
يقرض الخشب بأسنانه ، فجعلت أنظر إليه ، فلم يذهب ، فلم يذهب ،  
ومضت ساعة وهو في مكانه وأنا في مكاني ، كلانا له عمل من غير  
شك ، وهو فيما يبدو لي لا يحفل بوجودي ، ولكني أنا أحفل  
بوجوده . فزيارته في هذه الساعة شغلتنى عن نفسي ، وأخذت  
الاحظه وهو يمسح رأسه وفمه بيديه الصغيرتين . وجعلت أفكر  
في هذا المخلوق الذى لا يفكر فى ، وهناك الفرق بيني وبينه  
وتركت هذا النجار الصغير ذا المنشار الدقيق ، وحملت كتابي إلى  
سريري وسدلت « الناموسية » على وأحكامت ربط أطرافها حتى آمن  
فضول هذا الزائر إذا حدثته نفسه بمداعبة قدمي العاريه . ولم أجد  
فائدة من « المصايد » ، فإنها تكافئني عناء إعدادها وترقب تديجتها  
وليس أشق على النفس ولا أدعى إلى إضاعة الوقت من انتظار  
النتيجة ، إذا كانت الفريسة حاضرة تحاورنا وتداورنا ولا تقع حتى  
تقع معها نفوسنا وفوق ذلك فلنكن قنصنا من الفيران ، ومع ذلك لم  
تنقطع زيارتها ، فلنتركها إذن تجمي . وتروح ، ولنحملها هذا الجميل ؛  
ولنحرص نحن على أنفسنا وحوأئجنا . وأنا والله الحمد ليس لي حوائج  
يخشى عليها غير هذا الأثاث الرخيص من الخشب الأبيض قد  
حظمته كثرة التنقلات من بلد إلى بلد . فإذا يضيره أن تعبت به  
أسنان صغيرة ؟ ونمت في تلك الليلة بعد العشاء بقليل فإن في اليوم

التالى جلسة القاضى السريع ، وقد كلفت مساعدى بحضورها على أن أحضرها معه إلى جواره كي أمرته على نظام الجلسات وما يتبع فيها من إجراءات . وجاء الصباح وذهبت إلى المحكمة فوجدت مساعدى فى غرفة المداولة متأبطاً مظرفاً به وسامه وهو فى انتظار القاضى ولم يلبث القاضى أن جاء فى القطار القادم من القاهرة وخلفه شعبان الحاجب وهما يشتدان فى الخطى والقاضى يخرج من جيبه نقوداً يناولها للحاجب ويقول له :

— اللحم يكون فلاحى من قشرة بيت اللوح ! واصح لليض  
ياشعبان أفندى ، والزبدة والجبنة على عهدتك . وأوضع الحاجة  
فى السلالى كويس ، وانتظرنى بها على المحطة فى قطر الكالمعتاد .  
اطلع أنت السوق والأفندى المحضر يقوم بذلك العمل !  
وانصرف الحاجب سريعاً ، ودخل علينا القاضى وسلم فى  
عجلة قائلاً .

— أظن ندخل الجلسة .

وصفق بيديه :

— يا أفندى يا محضر ! حضر الجلسة . الجلسة .

والتقى بمعطفه التيل الأبيض السفرى على كرسى ، وأخرج  
وسامه الأحمر من محفظه ولبسه فى الحال وأقبل الفراش بالقهوة  
فشربها القاضى وهو واقف فى جرعتين وهجم على قاعة الجلسة ،

ونحن في أعقابه ، وصاح المحضر :

- محكمة !!

ونظر القاضى فى « الرول » ، وقال :

- قضايا المخالفات محمد عبد الرحيم الدنف ، لم ينق دودة القطن . غيايى خمسين قرش تهاى السيد عنيبة . . . لم يقدم ابنه للتطعيم غيايى خمسين . . محمود محمد قنديل ، أحرز بندقية بدون رخصة .. غيايى خمسين والمصادرة . غيايى خمسين . . غيايى خمسين . وانطلق القاضى فى الأحكام كالسهم لا يوقفه شىء ، والمحضر ينادى مرة واحدة حتى يلاحق القاضى ، فمن لم يسمع النداء عدائياً وحكم عليه غيايياً . ومن سمع بالمصادفة فحضر يجرى ابتدره القاضى :

- أنت يا رجل تركت غنمك ترعى فى زراعة جارك ؟

- أصل الحكاية يا سعادة البك .

ما عندناش وقت اسماع -كايات . . . حضورى خمسين . غيره . عبد الرحيم أبو أحمد . الخ الخ .

وانتهت المخالفات فى مثل لمح البصر ، وجاء دور قضايا الجنح وفيها سماع شهود ومرافعة محامين وهى تحتاج إلى شىء من الأناة ، فأخرج القاضى ساعته ووضعها أمامه ، وصاح فى المحضر :

- بسرعة القضية الأولى . . .

فنادى المحضر :

— سالم عبد المجيد شقرف .  
فنظر القاضى فى الرول وعرف التهمة والتفت إلى وهو لم  
يجتز بعد عتبه باب الجلسة وصاح فيه .

— ضربت الحرمة ؛ كلمة واحدة . قل من عندك !  
— باسعادة البك فيه راجل يضرب حرمة !  
— ممنوع الفلسفة . كلمة ورد غطاها . ضربت ؟ نعم أولا ؟  
— لا .

فصاح القاضى فى المحضر :

— أنكر التهمة . هات الشاهد .  
فحضرت الحرمة المضروبة تتعترفى « ملسها » الأسود الطويل ،  
فلم ينتظر القاضى حتى تدخل الجلسة ، وصرخ فيها :  
— ضربك ؟

— أصل ياسيدى القاضى ربنا يخليك .

— مفيش أصل . ضرب والا لا ؟ هى كلمة لاغير  
— ضرب .

— كفاية واستغنت المحكمة عن بقية الشهود . كلامك يامتهم .  
فتنحج المتهم وجعل يدافع عن نفسه والقاضى مشغول عن سماعه  
بكتابة الحثيات ومنطوق الحكم على الرول بالرصاص إلى أن فرع فرقع  
رأسه ونطق بالحكم دون أن ينظر إلى المتهم أو ينظر بقية دفاعه .

— شهر مع الشغل . غيره . . .

— ياسعادة القاضي أنا عندي شهاد . لا ضربت ولا بطاحت

الحكم ظلم . ظلم ياناس .

— إخرس ! اسجبه يا عسكرى !

فسجبه العسكرى بعيداً . ونوديت القضية اتالية فحضر رجل

هرم مقوس الظهر أبيض اللحية يدب على عصا فابتدره القاضي :

— بددت القمح المحجوز عليه ؟

— القمح قمحى ياسعادة القاضي وأكلته أنا والعيال .

— معترف . حضوري ، حبس شهر مع الشغل .

— شهر ! يامسلمين ! القمح قمحى . زراعتى . . . مالى . . .

فسجبه العسكرى . وهو ينظر بعينين زائغتين إلى الحاضرين

كأنما هو لا يصدق أن الحكم الذى سمع حقيقى . إن أذنه لاشك

قد خاتنه ، وان اليقين عند الناس الحاضرين فهو لا يسرق قمح أحد ،

لقد جاءه المحضر حقيقة فحجز على قمحه وعينه حارساً عليه حتى يسد مال

الحكومة . ولكن الجوع اشتد به وبعياله فأكل قمحه فمن ذا الذى

يعده سارقاً ويعاقبه عقاب السارق ؟ إن هذا الشيخ لا يمكن أن

يفهم هذا القانون الذى يسميه لصاً لأنه أكل زراعته ، وثمره غرسه .

إن هذه الجرائم التى اخترعها القانون اختراعاً ليحمى بها مال

الحكومة أو مال الدائنين ليست فى نظر الفلاح جرائم طبيعية

يحسبها بغريزته الساذجة . إنه يعرف أن الضرب جريمة والقتل جريمة  
والسرقة جريمة لأن في ذلك اعتداء ظاهر أ على الغير ، وأن الرذيلة  
الخلقية فيها بديهة جلية ، ولكن التبديد . . . كيف يفهم أركانه  
وحدوده ؛ إنما هو جريمة قانونية يظل يتحمل وزرها دون أن يؤمن  
بوجودها ، وأسلم الشيخ أمره لخالفه . وتسلمه الحراس وهو يقول :  
« لا حول ولا قوة إلا بالله » . ! ونوديت القضية التالية ، ولم يكذب  
المحضر بلفظ اسم المتهم حتى كان القاضى قد وزن « الدوسيه » ، في  
يده فوجده ثقيلاً والشهود كثيرين ؛ ونظر الى ساعته ثم نظر إلى  
منصة المحامين فلم يجد مع هذا المتهم محامياً فعلت أنه يريد أن يؤجل  
القضية ولم يحب ظنى ، فقد التفت إلى النيابة قائلاً :

— النيابة طالبة التأجيل ؟

فنظر مساعدى إلى مرتبكا ، فأسرعت قائلاً :

— بالعكس ؛ النيابة تعارض فى التأجيل .

فأخفى القاضى امتعاضه وقال فى شبه همس :

— ننظرها والسلام هات الشهود . . .

غير أن القاضى ذكر أن هذه القضية إنما هى قضية « معارضة »  
فى حكم غيايى سبق فيها . وينبغى أن تقدم المعارضة فى خلال ثلاثة  
أيام . فقرأ فى الحال التواريخ وصاح من فوره فى المتهم متنفساً  
الصعداء :

— القضية مرفوضة يا حضرة المتهم لأن المعارضة تقدمت  
بعد الميعاد .

فلم يفهم الفلاح ذو العري ، هذا الكلام وقال :  
والعمل إيه يا حضرة القاضى ؟  
العمل أن الحكم السابق بحبسك ينفذ عليك إجزه  
يا عسكرى !

— الحبس بالزور يا حضرة القاضى ؟ أنا مظلوم . لا قاضى سمع  
كلامي ولا حاكم طلب سؤالى لحد الساعة !  
— إخرس ! معارضتك يا رجل بعد الميعاد ؟  
— وماله ؟

— القانون يا رجل انت محدد ثلاث أيام .  
أنا ياسيدى القاضى غلبان لا أعرف أقرأ ولا أكتب .  
ومن يفهمنى القانون ويقرئنى المواعيد ؟  
— يظهر أنى طولت بالى عليك أكثر من اللازم . أنت يا بهيم  
مفروض فيك العلم بالقانون . إجزه يا عسكرى !  
ووضع الرجل بين المحجوزين وهو يلتفت يمنة ويسرة إلى من  
حواليه ليرى أهو وحده الذى لم يفهم ؟ !  
وجعلت أتأمل لحظة سحنة هذا المخلوق الذى يفترضون فيه  
العلم بقانون ، نابليون ، !!



وانتهت الجلسة أول الأمر . ووثب القاضي ناهضاً وعاد إلى حجرة المداولة ، وخلع وسامه على عجل ، فإن قطار العود لم يبق على قيامه غير سبع دقائق . ولكن القاضي تعود الركوب في آخر لحظة ، فهو في إسرعه لم يفقد ثباته الداخلي ولا اطمئنانه ؛ وتناول معطفه الأبيض ووضع على ذراعه وسلم علينا وانصرف إلى المحطة في شبه ركض ، وإذا كاتب النيابة يدخل مسرعاً ببعض الملفات وخلفه عسكري يسحب مسجوناً والكاتب .

— القاضي مشي ؟ عندنا معارضة في أمر حبس معروضة على

حاضرة القاضي .

فقلت له في الحال .

— الحق القاضي على المحطة قبل ما يركب .

فصاح الكاتب في العسكري .

— هات المسجون يا شاويش واطلع على المحطة .

وهرول الجميع . الكاتب والجاويش والمسجون في ذيل حارسه

مربوطاً في السلسلة كأنه كلب وجروا كلهم خلف القاضي الراكض

وهذا منظر مألوف لأهل البلد في يوم هذه الجلسة . فإن المعارضات

المتأخرة والتجديد لأوامر الحبس تنظر وتمضي في « بوفيه » المحطة

قبل قيام القطار بدقيقتين ، ويتحرك القطار وقدم القاضي مازالت

على الرصيف والأخرى في العربة الأخيرة وهو يقول :

— رفض المعارضة واستمرار حبس المتهم .

فيدون الكاتب منطوق هذا الحكم فوق « رخامة » مائدة البوفيه  
بينما يتسلم القاضي من شعبان الرا كض خلف القطار المتحرك  
« سلالى » البيض والزبد واللحم ، والحاجب يصيح بأعلى صوته :  
— اللحم يابك من بيت اللوح وبيت الكلاوى !

وصعدت بعد الجلسة إلى مكنتي أنا ومساعدى وقد بدا الوجوم  
على وجه المساعد فقد كان يحسب أن النيابة ستقوم فى كل قضية  
تشرح وجهة نظرها فى الاتهام ولقد كان أعد لذلك مرافعات  
طويلة مكتوبة بخط واضح جميل على « أفرخ فولسكاب » مسطرة ،  
فإذا هو يخرج بها من الجلسة مطوية كإدخالها ، وإذا الأحكام قد  
انطلقت انطلاق القطار فى بساطه وسرعة ، والعدالة قد جرت  
مجراها فى طرفه عين كأنها جواد السباق من دون حاجة إلى هذا  
التحليل والشرح والاستشهاد والاستدلال الذى سهر ليلابه ليحشو  
به هذه الأوراق .

وخلوت أخيراً فى مكنتي ودخل على رئيس القلم الجنائى يريد  
النيابة وفتح مظاريفه أمامى كالمعتاد فى كل صباح . وما كدنا نفض  
غلافاً أو غلافين حتى سمعنا ضجيجاً خارج الحجره وصوتاً مدوياً  
عرفت فيه صوت الشيخ عصفور ، فبعثت من يسأل عن خبره ،  
فقيل لى : إن المركز أرسله اليوم مقبوضاً عليه بعد أن حرر له

محضر تشرد. فأدركت أن المأمور مازال يعتقد أن هذا الشيخ هو الذي خطف البنت. وأن حقه عليه مازال متأججاً وأنه لجأ إلى وسائل الإدارة ليقع به. إن فكرة اتهام الشيخ عصفور بالتشرد ففكرة نيرة لا يمكن أن تخطر إلا بذهن المأمور المغيظ. والحقيقة أن هذا الشيخ متشرد لا أكثر ولا أقل وهو من هذه الناحية يصلح فريسة لنصوص القانون التي بين أيدينا ولكن العجب أن يسكت عنه المركز كل تلك الأعوام التي مضت ولا يفطن إلى أمر صناعته إلا الساعة. إن هذه الوسيلة لم تعجبني كثيراً ولم ترض ضميري القضائي؛ فإن نصوص القانون لا ينبغي أن تكون أسلحة في أيدينا نضرب بها على يد من نريد ضربه في الوقت الذي نختاره. إن القبض على الشيخ عصفور اليوم هو من غير شك مسألة انتقامية. إن المأمور وقد رأى هذا الرجل يفلت من تهمة خطف الفتاة دبر وفكر في طريق آخر لا يستطيع منه الإفلات. هذا أسلوب الإدارة الذي لا يحسن أن يسلكه رجال القضاء؛ وعزمت في نفسي أن أفرج عن الرجل، ولكنني أرجأت النظر في أمره حتى أفرغ من «توريد البوستة» التي أمامي. فلغد قدم لي عبدالمقصود أفندي مظروفاً أصفر ضخماً علمت أن فيه «قضايا جنائيات» مرسله إلينا من الرياسة لدرسها والمرافعة فيها أمام محكمة الجنائيات المنعقدة في هذا الشهر في عاصمة المديرية التي تعمل في دائرتها. فألقيت نظرة

على هذه القضايا فوجدتها تحوى مئات الصفحات . وهل لى رأس يتسع الآن لسكل هذا ؟ لاشئ . ينفرنى من عمل النيابة غير المرافعة فى قضايا الجنايات : فإن من العسير على ذا كرتى الضعيفة أن تحيط بكل تلك التفاصيل التى تتكون منها الجريمة كى تبسطها بعد ذلك فى نظام وترتيب وهدوء أمام مستشارين ثلاثة عابسين ومحامين متربصين ، وجمهور يشاهد ويحكم لا على لب الموضوع ، بل على مدى اتقان الحركات والإشارات ، ورنين الصوت فى القاعة ، ومهارة الإلقاء ، والضرب باليد فوق المنصة . إنى بطبعى لأصلح إلا لملاحظة الناس خفية يتحركون فوق مسرح الحياة . لا أن يشاهدنى الناس ممثلاً بارعاقد سلطت على وجهه الأضواء . إن هذه المواقف تعمى بصرى ، وتذهب لى . وتطير مافى ذا كرتى ، وتفقدنى ذلك الهدوء النفسى الذى أرى به أعماق الأشياء لذلك ما ترددت وأمرت بإحالة هذه القضايا على المساعد ، فهو مازال فى تلك السن التى يبهى فيها الإنسان ويعجب بهذه المواقف والمظاهر : وقد يكون له من حسن الاستعداد لهذا العمل ما يجب على أن أوجهه إليه . وإنى فوق ذلك أتيسر له فرصة الإقامة أياماً فى عاصمة المديرية حيث يجد فى ملاحظتها ومشاربها ما يرفه عنه ويلطف من أثر الوحدة والضيق فى هذا الريف الصامت . وأعجبتنى هذه الحجج ورأيتها كافية لإقناعى بوجود إزاحة هذه القضايا الثقيلة عن كاهلى . وناولنى رئيس القلم

الجنائى بعد ذلك مظروفاً آخر صغيراً قرأت عليه بالجبر الأحمر كلمة « سرى ، فقلت فى نفسى : « تلك ملحوظة من النائب العام » . فأسرعت بفضه فإذا هو بلاغ من مجهول أرسل إلى النائب العمومى رأساً فى القاهرة فأحاله على لإجراء اللازم فيه فنشرته فى يدي وقرأته بإمعان ، ولم آت على آخره حتى كان قد استولى على العجب ، وأطرت لحظة أفكر ، ثم أعدت النظر فيه وتمهلت فى قراءة سطوره :

« سعادة النائب العمومى بمصر      دام

نعرفكم بأن الحرمة زوجة قر الدولة علوان المضر وب الموجود « بالاستبالية الميرى ، كانت ماتت من سنتين مخنوقة وتستر عليها حلاق الصحة من أجل الرشوة وأجرى دفنها بدون علم الحكومة . وأسألوا زوجها علوان واختها بنت ريم عن الذى خنقها . وأسباب الجريمة معلومة ولا تخفى على فطنتكم إذا كلفتم خاطركم بالتحقيق بنفسكم وإنكم تكشفون أسراراً خطيرة وتضربون على أيدى الأشرار . وتوضعون ، العدل فى مجراه . والعدل أساس الملك . وقد قال الله عز وجل فى كتابه العزيز : ( وإذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل ) صدق الله العظيم ، « فاعل خير »

١٧ أكتوبر . . .

فكرت ملياً في أمر ذلك الخطاب . من ترى يكون مرسله  
المجهول ؟ الأسلوب ينم على أن صاحبه أزهرى فسد . هذه الآية  
القرآنية وهذا التوقيع لا يصدران إلا عن هذا الصنف الذي يستغل  
علمه القليل وجهل الناس المطبق في الريف ، فيعيش على تحرير  
البلاغات المأجورة وبذر الشقاق بين الأسر والأفراد . ولكن في  
هذا الخطاب على أي حالى وقائع تستدعى التحقيق ولو صح ما جاء  
فيه من أن زوجة قمر الدولة قتلت خنقاً لخرجنا من الأمر بحناية  
تمخضت عن جناية لا يهمننا الآن البحث عن صاحب الخطاب  
بقدر ما يهمننا التأكد من صحة الاتهام . لا بد إذن من فتح المقبرة  
واستخراج جثة زوجة المصاب وعرضها على الطبيب الشرعى .  
وقد اتجه تفكيري كله هذا الاتجاه فلم أشغل ذهني بما ورد عن ريم  
في هذا البلاغ ما يمكن أن يلحقها من شر . ذلك أن كل شيء  
مترتب على نتيجة فحص الجثة . وكنت قد بادرت فأخطرت الطبيب  
الشرعى ببرقية ، ووقت بما يلزم من إجراءات لفتح المقبرة ، فعينت  
عليها الحراس يسهرون الليل بجوارها حتى لا يعيث بها عابث .  
وأرسلت في طلب « اللحد » . وكنت قد اتصلت تليفونيا بالمركز  
عقب قرأتى ذلك الخطاب لأخطر المأمور ، فقبل لى أن المأمور

ركب ومضى إلى اجتماع خطير معقود في المديرية برياسة المدير وحضر  
إلى الفوز معاون يقول :

— سعادتك اطلعت طبعاً على جرائد المساء ؟  
— أبدأ .

— في البلد أزمة وزارية .

فأدركت في الحال سر اجتماع المديرية ، وعلمت أن رجال  
الإدارة منذ الساعة لن يكون لهم عقل ولا فكر في غير تنسيم  
هوى الوزارة الجديدة ، حتى يعدوا أنفسهم لليل معها كما مالوا مع  
غيرها . وهذا الميل يبدو أكثر ما يبدو في التجهم السريع للعمد  
والأعيان الموالين للوزارة الآفلة ، والابتسام الوديع لأنصار الوزارة  
المقبلة ولم أبدأ أية ملاحظة للمعاون فأنا رجل قضاء لا ينبغي لي  
السلام في السياسة ، ومهما تغيرت الوزارات والأحزاب فإن  
القانون هو القانون والتفت إليه أخيراً وقلت في هدوء :

— أظن حضرتك تقوم معنا بدل المأمور .

— الظروف المحاضرة تمنى من ترك المركز . لكن ملاحظ

النقطة موجود هنا في خدمة سعادتك .

تركته ينصرف إلى مركزه ، وأمرت بإعداد السيارة وجلست  
أنتظر الطيب الشرعى وقد أجاب على برقيتنا بإشارة تليفونية أنه  
حاضر اليوم . ودخل على عبد المقصود أفندى وأشار بيده إلى

والنتيجة، المعلقة بالحائط، وذكرني بضرورة تفتيش سجن المركز؟  
فالنياحة عليها أن تقوم بهذا التفتيش فجأة مرتين في كل شهر على الأقل فلم  
ألتفت إليه وأمرته أن يذكرني فيما بعد، فحشى خطوتين ثم عاد وغمز بعينه  
— فيه إشاعة أن الوزارة الجديدة تألفت وناوية تجرى  
انتخابات جديدة.

— وماله؟

— غرضي يعني... قبل السجن المركز ما يزيد حم...  
فلم أتبس بكلمة وتشاغلت بتقليب أوراق القضية التي تقوم  
من أجلها، ورأى رئيس القلم الجنائي أني أن أجيب فانصرف متردداً  
متباطئاً وأدركت من هيئته أنه لم يأت من تلقاء نفسه، فناديته  
فرجع، فقلت له في ابتسامة التخاطب:

— كاتب ضبط المركز كلك في التليفون؟

فأجاب للفور:

— طبعاً. ودفاتر السجن مسددة جاهزة... ومحضر التفتيش  
مكتوب. وكل شيء تام، ولا باقى غير إمضاء سعادتك. والحكاية  
كلها قيمة ربع ساعة ونكون انتهينا من مأمورية تفتيش السجن.  
ففظرت إليه شزرا:

— شيء جميل! تفتيش جنائي مضبوط يا عبدالمقصود أفندى...؟

فارتبك الرجل قليلاً قال:



— أنا غرضي راحة سعادتك من جهة ، وعدم إحراج المركز  
في الظروف الحاضرة من جهة . . .  
— طيب ، طيب . . .

وأسرعت فأقفلت باب الموضوع . فقد سمعت نقرأ على باب  
حجرتي ، وأبصرت من خلفه الطبيب الشرعي بحقيبته الصغيرة  
يستأذن في الدخول . فهضت في الحال واتجهت إليه وأدخلته  
مرحباً وطلبت له فنجاناً من القهوة . ثم تجاذبنا الحديث في الأحوال  
العامة . فأجابني باختصار ماسبق أن علمته من عبد المقصود أفندي  
من أن الوزارة الجديدة قد تسلمت فعلا مقاليد الأمر ، وأنها تعد  
العدة لانتخابات جديدة . ولم نعلق على هذه الأخبار بشيء . فكلانا  
يجهل ميول الآخر . كلانا يخشى أن يظهر رأيه الدفين وبدأنا لوقتنا  
الكلام في العمل وفي القضية التي بين أيدينا ، وأخبرت الطبيب  
بظروفها في عبارات سريعة . واستقر الرأي على المبادرة بالإنتقال  
إلى المقبرة . فقمنا إلى السيارة وانطلقنا ولم نقف حتى بلغنا مكاناً  
قصياً في المزارع قد تجمعت فيه تحت ظل نخلتين أو ثلاث بضع  
مقابر من الطين والآخر قد علمتها ، شواهد ، طويلة سمراء كأنها  
رؤوس العفاريث فنزلنا وهرع لاستقبالنا الحراس هبوا فجأة  
من مرافدهم لمرآنا وخرجوا علينا ، بعضهم يهبط من أعلى مرتبة ،  
قد وضعت فوق المقبرة كما يوضع الهودج فوق الناقة ، وبعضهم

يثب من على حصير فرش بين يدي هذه المقبرة كأنهم قرودة تثب من حجر أمها؛ وسألت عن حضرة ملاحظ النقطة فأشاروا إلى الطريق الزراعي، فرأيت فتى في ملابسه العسكرية يقبل متبختراً على حصانه الأشهب. ولم تمض لحظة حتى بدأنا العمل؛ فأمرنا اللحاد بفتح المقبرة فأعمل في الحال فأسه ومعه في البناء الذي يخفي المدخل. وسألني الطبيب الشرعي عما إذا كنا استدعينا أحداً من أهل المتوفاه يستطيع أن يتعرف على الجثة وكفنها، فأجبتُه إنا لا نعرف للتوفاه غير أخت قدهربت واختفت. فاقترح إيفاد الملاحظ إلى القرية يحضر لنا امرأة من الجيران ممن حضروا غسلها أو دفنها. فقام الملاحظ للفور لما انتدب له. وأمعن اللحاد في الدق والهدم حتى جرح صدر المقبرة جرحاً بالغاً وقام عنها وهو يقول:

— الباب من غير مؤاخذه من ورا... —

وتناول أدواته وذهب إلى الناحية الأخرى وجعل يوسعها ضرباً وطرقاً. فصاح به الطبيب الشرعي:

— هي دي يارجل انت مقبرة توت عنخ آمون؟ تغلط في المدخل وانت لحاد الناحية! —

— أصل يا حضرة الدكتور مضى عليها زمن مقفلة.

وضرب ضربتين انفتح تحتها المدخل. وزحف الرجل على

يديه وقدميه إلى داخل المقبرة وخرج يجذب شيئاً ملفوفاً في  
« قماش لالون له من القدم تكاد أطرافه تنفتت في أصابعه ،  
ووضعه تحت أنظارنا وهو يقول :

— شو فواهي دي « بلا قافية » الحرمة ؟

فكشفت الطيب الشرعى عن تلك العظام النخرة ونظر فيها  
ثم قال للحاد :

— ارجع بها يا حمار . جثة رجل .

راجل ؟

واختفى للحاد بالجثة في قلب المقبرة وعاد فظهر بجثة أخرى  
ما كاد يفحصها الطيب حتى وجدها هي كذلك جثة رجل وهكذا  
ظل يعرض علينا الجثث التي وقعت عليها يده فإذا كلمها لرجال  
نصاح اللحاد مغيضاً :

أمال النسوان راحت فين يار جالة ؟

فقال الطيب في هدوء :

— حضرتك بالاختصار غلطت في المقبرة .

ثم نظر إلى المقبرة التي بجوارها وقال له :

— افتح دي

فذهب للحاد بأدواته حيث أشار إليه الطيب بينما أنزل

الحراس ، متاعهم ، من فوق المقبرة الأولى وهم يتهايمسون !

— بقي كئافا را كمين غلط!

وفتحت المقبرة الثانية . وما كاد اللحد يزحف إليها ويختفي فيها حتى ظهر الملاحظ عائداً وخلفه امرأة تخفي وجهها بطرف طرفتها السوداء وترفع عقيرتها مولولة :

— يا للي كنت منورة الحارة!

فسد الملاحظ فمها في الحال منتهراً :

— اخرسى يا ولية!

واقترب الطبيب الشرعي من المرأة وحادثها فعلم منها أنها كانت جارة للمتوفاة وأنها حضرت جهازها .

— اسمعي ياستي . الميتة كفنوها قدامك ؟

فتهدت المرأة وقالت :

— قدامي ياسيدي ، وبقيت بعيد عنك ألطم وأرقع بالصوت .

— المهم عندنا مش اللطم . كفنوها في كم ، درج ، ؟

— في عين العدو ثلاث « أدراج » درج مرمر ودرج كزميز

و درج حرير أخضر . . .

وخرج اللحد وقتئذ يجذب من داخل المقبرة جثة فحص الطبيب

كفنها وقد ذهب لونه بفعل الزمن إلا بقية اخضرار خفيف في

أطرافه ينم عن حقيقة لونه الغابر ، فأمر من الفور بحمل الجثة

ووضعها على « لوحين ، من الخشب نصبا سريعاً على هيئة مشرحة  
تحت ظلال شجرة من السنط ، وطلب إبعاد الحاضرين فرجع  
الملاحظ عصاه الخيزران الرفيعة في يده وفرق الناس صائحاً :

— بعيد . بعيد . . .

وكشف الطيب الكفن في احتياط . وماكاد ذلك الهيكل  
العظمى المسجى يظهر للعيان حتى سمعت خلقي همساً وهمهمة ،  
فاستدرت فأبصرت سائق السيارة مختفياً خلف جذع الشجرة  
شاحب الوجه بارز العينين يشاهد هذا المنظر ولا يملك نفسه :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ! إن الله ! إن الله ! وإن الله ! راجعون !

ولمحة الطيب فاتهره وأمره بالابتعاد . وصححت أنا كذلك في السائق  
صيحة انصرف بعدها إلى سيارته وقبع فيها . غير أنى تأملت قليلاً  
أمر هذا السائق . . . ما الذى روعه ؟ أهو منظر العظام فى ذاتها ،  
أم فكرة الموت الممثلة فيها ، أم المصير الآدمى وقد رآه أمامه رأى  
العين ؟ ولماذا لم يعد منظر الجثث أو العظام يؤثر فى مثلى وفى مثل  
الطبيب ، وحتى فى ذلك اللحد أو الحراس هذا التأثير ، يخيل إلى  
أن هذه الجثث والعظام قد فقدت لدينا ما فيها من رموز . فهى  
لا تعدوا فى نظرنا قطع الأخشاب وعيدان الخطب وقوالب الطين  
والآجر . إنها أشياء تتداولها أيدينا فى عملنا اليومى . لقد انفصل  
عنها ذلك « الرمز » الذى هو كل قوتها . نعم . وماذا يبقى من كل

تلك الأشياء العظيمة المقدسة التي لها في حياتنا البشرية كل الخطر  
لوزعنا عنها ذلك ، الرمز ، أبقى منها أمام أبصارنا اللاهية غير  
المكترته غير جسم مادي حجير أو عظم لا يساوى شيئاً ولا يعنى  
شيئاً . ما مصير البشرية ، وما قيمتها لو ذهب عنها ، الرمز ، ...  
، الرمز ، هو في ذاته كائن لا وجود له . هو لا شيء ، وهو مع ذلك  
كل شيء ، في حياتنا الآدمية . هذا ، اللاشيء ، الذي نشيد عليه حياتنا  
هو كل ما نملك من سمو نختال به ونمتاز على غيرنا من المخلوقات .  
هناك الفرق بين الحيوانات العليا والحيوانات الدنيا .

وقطع الطبيب سلسلة تفكيرى بمقص طبي في يده ذات القفاز  
الجلدى الشفاف يفحص به العظام قائلا :

امرأة من غير شك

ومضى في عمله وهو يقول .

- الأضلاع سليمة ، والجمجمة : الطاسة سليمة ، والعظم

اللامى ..

وهنا نظرت إليه في انتباه . فالعظم اللامى في العنق هو الدليل  
الناطق على حدوث الجريمة . فإن كسره معناه أن الخنق قد وقع .  
وإن كل ما بهمنا في الحقيقة من استخراج الجثة والكشف عنها هو  
فحص العظم اللامى والتحقق من سلامته ولم يمهلى الطبيب حتى  
أسأله وصاح وهو يرينى هذا العظم بين أصابعه :

— مكسور .

هذه الكلمة كانت كافية لتحديد موقفي من الأمر . إن ماجاء في البلاغ المجهول المصدر حقيقي إذن . وماذا انتظر بعد ذلك . وصحت في الطيب :

اتتهينا

وعزمت على العودة مسرعاً للبدء في تدبير ما ينبغي للوصول إلى معرفة سر هذه القضية الجديدة ، فهي من دون ريب مفتاح الأولى . وفرغ الطيب الشرعي من أمر الجنة وأعادها للحداد أمامنا إلى مقرها وسد عليها كما كانت . وأنا صامت في مكاني أفكر فيمن يكون الخائق لهذه المرأة . أهو زوجها المصاب ؟ وما الذي حمله على ذلك . وأختها ريم ماشأنها في الأمر ؟ أتراها تعلم بهذه الجريمة ؟ وأين ريم الآن ؟ إن وجودها اليوم في التحقيق ذو أهمية كبرى ولكن كيف نعر عليها ؟ إن الشيخ عصفور يعلم مقرها ، أو على الأقل يستطيع أن يعاوننا في البحث عنها . إذن فلنجعل الشيخ عصفوراً مبدأ لخط السير الجديد . فلاقتعه أنا بوسائلي بعيداً عن طرق الإدارة العنيفة . إن مثله قد يؤخذ بالحيلة والهدوء ترى لو أفهمته مثلاً أن في إمكاني أن أزوجهامنه . . وأعجبتني الفكرة وعزمت على تنفيذها . وركبنا السيارة عائدتين ومررنا في طريقنا بالقرية ، فإذا أصوات حزن وولولة نساء ترتفع من دوار ، العمدة فقلت وأنا أقف السائق بإشارة :

— العمدة مات ؟

وأطلت من نافذة السيارة ، فإذا أنا أمام منظر لم أفهمه أول الأمر . ورأيت شيخ الخفر ووكيله وبعض الخفراء يحملون شيئاً في أيديهم ، ومن حولهم جموع الرجال والنساء والصبيان يهلمون ويكبرون والنساء يزغردون كما يفعل في الأفراح وفي أيديهن الدفوف يضربن عليها . وتأملت جداً ما يحملونه وتأمل معي الطبيب الشرعي دهشاً فرأينا آلة تليفون حكومية من طراز تليفونات المراكز فصاح الطبيب في عجب :

— التليفون له زفة كأنها زفة عروسة .

ومر بقربنا خفير نظامي فأشرت إليه فاقرب وسألته عن الخبر فأجابني بأنه قد صدر اليوم أمر بفصل العمدة الحالي وتعيين آخر مكانه من الأسرة المنافسة في القرية ففهمنا كل شيء ، ومال على الطبيب يقول ضاحكاً :

— يظهر أن « تليفون » الحكومة عند العمدة في مقام الصولجان هذا صحيح فيما أرى ، إنه مظهر السلطة والحكم وأداة الاتصال بالحكومة ، وإن خلعه من دار العمدة « المخلوع » إنما هو « رمز » لزوال السلطة ، وإن هذا العويل المرتفع من « دوار » العمدة القديم ، وهذا البكاء الذي يشيع به « التليفون » الخارج من بيته لدليل على غداحة المصيبة ، وهذه المصيبة كمثل مصيبة لها وجهها الآخر الباسم



يطل على ناحية أخرى؛ وإن دار العمدة الجديد الذي يستقبل  
«التليفون» الداخلى عليه بالزغاريد والدفوف لدليل أيضاً على مبلغ  
السعادة والهناء هنا «الرمز» كذلك فى شكل «تليفون» من الصلب  
والخشب قد لعب دوراً مهماً على مسرح هذه القرية الواعدة .  
وانطلقت بنا السيارة والطبيب صامت فى بعض الطريق .  
وأخيراً التفت إلى وقال :

- يظهر أن العمدة الجديد من محاسيب الوزارة  
الجديدة .

فقلت له : إن هذه القرية كمثل قرية اليوم فى مصرها عائلتان  
قويتان أو أكثر تتنافس فى العمدية وكل منها ينتمى إلى حزب  
من الأحزاب التى تتنازع الحكم . ولماذا تريد أن يكون الحال فى  
القرية غيره فى الدولة ؟ وهل القرية إلا مصغر الدولة ؟

١٨ أكتوبر ...

كان أول ما فعلت عقب رجوعي إلى مكنتي أن أرسلت في طلب  
الشيخ عصفور ، فحضر أمامي مطروقا صامتا فابتدرته :

- البنت ريم تعجبك؟

فرفع رأسه ونظر إلى نظرة أحسست أنها نفذت إلى أعماق  
نفسى ، ثم عاد فأطرق ولم يجب .

فقلت له :

- أنا مستعد أطلب المأذون وأعقد عليك وعليها حالا .

فلم يبد حراكا ، فضيت أقول :

- لو كانت موجودة هنا كنت حالا ..

وجعلت أستحثة على الكلام فلم يخرج عن صمته وأخيراً  
ترنم بصوت كالهمس لكنه واضح النبرات :

نهيتك ما انتهيت

والطبع فيك غالب

وديل الكلب ما ينعدل

ولو علقوا فيه قالب

فما تمانكت أن صحت :

- إخرس يا بهيم !

وأسرعت بطرده ، وقد تبين لي أن لا فائدة ترجى من مثله ..

ورأيت أن أسأل حلاق الصحة ، فاستدعيته وسألته في أمر المرأة  
المخنوقة وكيف صرح بدفنها بدون إذن النيابة ، فقال من فوره :  
وشرفك ياسيدنا البك ما أعرف إن كانت مخنوقة أو محرقة  
حضرة حكيم الصحة أمر بالدفن كالمعتاد .

— بدون توقيع كشف ؟

— لو كنا نقعد نكشف ياسعادة البك على كل متوفى كان

توفينا من بدرى .

— بقى بالاختصار لاحد كشف ولا نظر . . .

— الجارى عليه العمل ياسعادة البك أن حلاقين الصحة فى

الجهات تبلغ الدكتور المفتش بالتليفون ، وحضرته قاعد على مكتبه

هنا ماعليه إلا أنه يسأل فى كل حالة عن سبب الوفاة ترد عليه فى

التليفون : ماتت يادكتور مواته ربها يقوم يقول : ادفن ، ادفن ادفن . . .

— ماشاء الله ، ماشاء ، ماشاء الله !

ولم أرف فائدة كذلك من البحث مع هذا الحلاق فأنا أدرى الناس

بحلاقي الصحة إن كل مهمتهم أن يقبضوا من أهل المتوفى خمسة

قروش ويحصلوا لهم على الإذن بالدفن دون أن ينظروا فى وجه

جثة أو ينتقلوا إلى منزل متوفى . إن هم إلا سمسرة « دفن » ،

حتى مع فرض وجود النزيه منهم الذى يريد القيام بواجبه فيذهب

للكشف على الجثة ، ماذا يستطيع مثل هذا الجاهل أن يستكشف

إنه سيرى رجلاً أو امرأة قد فاضت روحها وليس بها إصابات ظاهرة ، فكيف يعرف أن الوفاة مشتبهاً في أمرها ؟ إن « نظام » حلاقي الصحة نفسه ، هذا النظام الذي لا تعرفه أية دولة على ظهر الأرض هو موطن الداء . ومثله عندنا نظام « الدايات » ، وإنى ما زلت أذكر ما قصه علي طيب مستشفئ المركز ذات يوم ، قال لي : إنه دعى إلى حالة ولادة عسرة في إحدى جهات الريف ، فذهب مسرعاً فوجد المريضة ملقاة على ظهرها وقد تدلت منها ذراع الجنين وبجوارها عجوز حراء الشعر والشدقين ، قيل لي أنها « ست هندية الداية » ، وأخبروه أن المريضة قد مضى عليها ثلاثة أيام على هذه الحال بهذه الذراع الخارجة منها ، فسأل الداية : لماذا انتظرت كل هذا الوقت ولم تخطري الطبيب ؟ فأجابت : « كنا منتظرين سترربنا ، قلنا المولى ينتعها بالسلامة » ، ووضع الطبيب يده في الرحم فإذا الرحم محشو بالتبن ، وإذا مئانة المريضة قد تهتكت وأنها هالكة لا أمل فيها ، وأن المولود قد مات منذ يومين ، وألقى نظرة حوله فإذا كومة من « التبن » القدر عند أقدام المرأة ، فالتفت إلى « ست هندية الداية الصحية » ، مستفهماً . فقال أصل ياسيدي الدكتور لما دخلت يدي أسحب الولد لقيتها راحت ، مرفلطة ، قمت قلت : « أحرش كفي بشوية تبين » ومدت للطبيب يداً ملوثة « بالتبن » ، قد بدت منها أظافر طويلة سوداء ، وقال لي الطبيب : « إن الداية

تولد المرأة كما لو كانت جاموسة .. وماتت المريضة مع طفلها!  
واكتفت الصحة بأن سمجت من هذه الداية ، الصحية ، التصريح ..  
ولكنها لم تغير النظام وهي تعلم أن ألوف الأطفال يموتون على هذه  
الصورة في كل عام ...

نظرت إلى حلاق الصحة مليا وأدركت أن أرواح الناس في  
مصر لا قيمة لها . لأن الذين عليهم أن يفكروا في هذه الأرواح  
لا يفكرون فيها إلا قليلا وطردت هذا الرجل أيضا ، وقلت في  
نفسى : إن خير السبل في مثل هذه القضية أن أعرف مرسل البلاغ  
المجهول وفكرت لحظة وخطر لى أن أعرض خطه على القاضى  
الشرعى وهو يتحرى لى بين موظفى محكمته وبين المحامين الشرعيين .  
ولعله هو نفسه قد مر به هذا الخط . ومادمت اعتقد أن صاحب  
الخطاب أزهرى فليكن البحث فى دائرة المحكمة الشرعية : وطلبت  
فى الحال عبد المقصود أفندى رئيس القلم الجنائى وهو من أصدقاء  
القاضى الشرعى وكلفته أن يرافقتى فى الحال ، ولم يمض قليل حتى  
كنا فى بناء تلك المحكمة ، فسألنا عن القاضى فدلونا على حجرة أمام  
بابها « قبقاب » ؛ فهمس عبد المقصود أفندى فى أذنى أن فضيلته  
لا شك كان يتوضأ كى يصلى الظهر . وسرد لى فى عبارتين مبلغ  
ورع هذا القاضى وزهده ؛ وضربنا على الباب ودخلنا . فرأينا  
القاضى خالعا جبهته وعمامته وهو جالس على حصير الصلاة ، فلما

رأنا نهض وحيانا وأجلسنا على الكراسي وطلب لنا زنجبيل ،  
ورأى عبدالمقصود أفندي أن يوفر على مئونة بدء الحديث ، فالتفت  
إلى القاضى الشرعى وقال .

— البك وكيل النيابة غرضه يطلب من فضيلتك . .

فأجاب القاضى سريعا فى شىء من القلق :

— خير إن شاء الله . طلب خصوصى أو

رذكرتني هيئته وقلقه بقصة عنه قصها على المأمور وقال لي يوماً :

إن المدير اقترح تحسيناً لمظهر المركز ومراعاة للصحة العامة إنشاء

متنزه فى وسط البلد ، وقد تبرع بعض الأعيان بما استطاعوا التبرع

به من مالهم ، وبلغ القاضى الشرعى ذلك ؛ فذهب إلى المأمور وسفه

له هذا المشروع واقترح أن يقام بدل المتنزه مسجد لعبادة الله ،

وحض الناس على التقوى والصلاح ، فأمن المأمور الحديث على

كلام القاضى وتحمس لرأيه أعظم التحمس . وقال له :

— لا بد من عرض اقتراح المسجد على سعادة المدير ، وأنا

متأكد أنه موافق مقدما ، وزيادة فى إدخال السرور على قلب

سعاداته نكتب اسم فضيلتك فى رأس قائمة التبرعات ، باعتبار أنك

متبرع بمبلغ خمسة جنيهات . وأخبرنى المأمور أن القاضى وكأنه

لم يزم الليل حضر إليه فى الصباح المبكر يجرى ويقول له فى تردد :

— مشروع المسجد بلغته لسعادة المدير ؟

فأجاب المأمور في ابتسامة خفية .

— طبعاً اليوم آخر النهار أنا ناوى أقابل سعادته .

هذه الواقعة تمثلت في رأسي فجأة عندما قال لنا القاضى في قلق :

« طلب خصوصى ؟ ، فقد قرأت ما جال في نفسه . فهو لاشك قد

خاف أن نكون قادمين لطلب تبرع من هذا النوع . فأسرعت أرد

إليه الاطمئنان وأخبره أن حضورنا هو لعمل من أعمال وظيفتنا ،

وأخرجنا في الحال من ملف أوراقنا الخطاب الغفل وعرضناه

عليه وحادثناه فيما نريد منه فانشرح صدره وقال :

— موضوع بسيط . نشرب الزنجبيل أولاً . . . ثم ننظر بعد

ذلك في أمر البلاغ . . .

وصفق بيديه وصاح :

— يا شيخ حسنين استعجل لنا الفراش .

ثم صمت قليلاً . وعاد فخياناً :

— أهلاً وسهلاً . . . حصل لنا الشرف . . .

ورأى عبدالمقصود أفندى أن ييدى لى صلته بالقاضى ومعرفته

له فأشار إليه والتفت إلى قائلاً :

فضيلته من كبار العلماء الراسخين فى العلم .

ووجه الكلام للقاضى :

أنا يافضيلة القاضي لا أنسى يوم المحاضرة لما رديت على  
الولد المدرس . :

فقاطعه القاضي مستغفراً مستعيذاً :

— أخزاه الله . . . أنا لا أطيق الصبر على الكفر والجهل :  
والتفت القاضي إلى وقال :

— تصور ياسيدي البك أن هذا الأفندي مدرس جغرافيا  
في المدرسة الثانوية ألقى فيها محاضرة علمية عن عالم نصراني اسمه  
« شنتون » قال إنه عرف بالضبط وزن الأرض والسماء . استغفر  
الله العظيم !

وتأملت قليلا في الإسم الذي نطقه القاضي . واهتديت آخر  
الأمر إلى أن المقصود به العالم الرياضى « اينشتين » ، ولذلى أن  
أعرف ماجرى ، فهذا من خير شك صراع بين عقليتين واصطدام  
بين رأسين يحلوا لمثلي دائماً أن يشاهده ويقف على مداه . فقلت  
للقاضى فى شىء من الإهتمام :

— وحضرت المحاضرة يافضيلة الشيخ !

— حضرت والأمر لله من قبل ومن بعد .

— وماذا حصل ؟

— حصل ياسيدي أن هذا المدرس قام وقال فى حضرة الباشا

المدير وكبار الموظفين والأعيان إن هذا العالم الكافر قد أتى بما لم



يأت به الأوائل والأواخر ، فقامت وصحت به : « كذاب يا حضرة  
المدرس ، لقد قال الله في كتابه العزيز : « ما فرطنا في الكتاب  
من شيء ، فأسكتني الحاضرون فسكت تأدباً لوجود سعادة المدير  
ولولا هذا ما سكت ورب الكعبة ، ثم استمر هذا الأفندي في كلام  
لا هو بالمعقول ولا بالمنقول إلى أن قال : إن علمه النصر انى قد  
استطاع بمعادلات جبرية أن يزن الأرض والسماء ! فما تمالكت  
نفسى ونهضت وأنا انتفض وصحت به : « مهلا يا حضرة الأفندي  
مهلا ، أخبرنا قبل كل شيء ، هل هذا العالم (شنتون) ووزن السموات  
والأرض بالكرسى أم بدون الكرسى ؟ ... فارتبك المدرس  
ونظر إلى قائلاً « كرسى إيه ؟ ، فرددت عليه بالآية الشريفة :  
« وسع كرسية السموات والأرض ، أجب أيها المدرس الأفاك ،  
ها هنا الحاصل والجوهر . الوزن كان بالكرسى أو بغير الكرسى ؟ .  
فكنمت ضحكي وقلت في هيئة الجد :

— وأخيراً .. ؟

— وأخيراً ياسيدى .. لاشيء ، لم يستطع المحاضر أن يجيب ،  
واحتج وأنسحب ، وضج الحاضرون واختلط الحابل بالنابل ،  
وغضب منى سعادة المدير واعتبرها إهانة لمجاسه . وترك الناس  
المحاضرة وهى المسألة الأصلية والتفتوا إلى إعتدائى على مقام المدير  
وهى مسألة فرعية ، وتكاثروا على يطلبون إلى الاعتذار ، فاعتذرت ،

وأمرى لله ! ولكن مع ذلك أشعر أن من يومها والباشا المدير لا ينظر إلى بعين الرضا . . .

وسكت قليلاً ثم قال في لهجة أخرى :

— بمناسبة الحالة السياسية اليوم أظن الوزارة الجديدة ستجرى

حركة تغيير بين المديرين ورجال الإدارة كالمعتاد ؟

فلم أكد أفتح فمى لأجيب حتى دخل الفراش وهو نصف شيخ أعنى أنه يلبس العمامة على جلباب عادي قدر كجلايب الفلاحين ، وهو عارى القدمين وقدم لنا فنجانين من طرزين مختلفين قد كسر مقبضاهما فشربت في احتراس وأنا أنظر إلى داخل الفنجان خشية أن يكون فيه بدل السكر صرصار . وفرغنا من الحديث والزنجبيل وبدأنا العمل . وطلب القاضي أوراقاً بخط موظفيه ضاهينها بخط البلاغ فلم نجد مشابهة . وعرضنا البلاغ على من في المحكمة لعل أحداً يذكر لنا إنه يعرف صاحب هذا الخط فلم نظفر بطائل : وخرجنا من المحكمة كما دخلنا ومشينا في طريقنا إلى دار النيابة . فقال عبد المقضود أفندي :

— نمر بالمرة نفثس سجن المركز ونخلص .

فلم أبدأ اعتراضاً . وذهبتنا إلى المركز فوجدنا الأمور قد جمع بعض العمدة في حجرته وجعل يشرح لهم وجهة النظر الجديدة ويصدر إليهم تعليماته بنفس الحماسة التي كان يبيدها في مبدأ تولى

الوزارة السابقة . فما إن رآني وعلم بالغرض من زيارتي حتى خف  
لاستقبالي وأجلسني في صدر حجرته . وفض مجلسه وهو يشبع  
العمد إلى الباب قائلاً .

— فتح عينك يا عم — دة إننت وهو . مرشح الحكومة في  
الانتخاب لازم ينجح أنا نفضت يدي وأتم أحرار مفهوم ؟ ..  
فأجابوا في صوت واحد :

— مفهوم يا حضرة البك

وتردد أحدهم وقال :

— فيه يا جناب البك جماعة مشاغبين أقويا كلمتهم مسموعة  
من العائلة الثانية الكبيرة . .

فدفع المأمور في كتفه دفعاً وقال له :

— المشاغبين اتركهم لي أنا ! ... تفضل .

فخرجوا جميعاً وعاد إلى المأمور يتنفس الصعداء ويقول في

صوت متعب :

بقي لي يومين بليلتين في القرف ده

وأردت أن أداعبه وأخيفه قليلاً فقلت :

— لكن يا حضرة المأمور معروف عنك أنك من حزب

الوزارة السابقة .

فقال لي على الفور :

— أسكت إعمل معروف . أنا طول عمرى مع الوزارة  
الجديدة بقلبي ، واللى فى القلب فى القلب ؛ والأعمال بالنيات .  
فابتسمت وقلت له :

— نترك السياسة ونتكلم فى الشغل  
وأخبرته بنتيجة فحص الجثة ووجود العظم اللامى مكسوراً  
وضرورة البحث عن المجرم فى جناية الخنق الجديدة . وطلبت  
إليه أن يوجه عنايته لمساعدتنا فى الكشف عن الفاعل فقال فى  
الحال :

— المركز مش فاضى اليومين دول للخنق والحرق .

عجائب أتم لكم شغل غير المحافظة على الأمن ؟

— يعنى حضرتك مش فاهم ! . . .

— لا مش فاهم ! . . .

— نترك الانتخابات ونلتفت للقتل والخنق ؟

— طبعاً .

— التعليمات اللى عندنا غير كده !

وتركنى وجعل يعبث بقيود حديدية وسلاسل معلقة على  
حائطه . وغمزنى عبد المقصود أفندى كى أغلق هذا الموضوع .

وأراد أن يغير مجرى الحديث فقال :

— البك المأمور يسمح يطلب دفاتر السجن . .

وشعرت أن كرامة عملي في خطر فصحت قائلاً :  
— لا بد أني أقتس بنفسى السجن والمركز كله .  
ونهضت في قوة وعزيمة أزججت المأمور فتردد ثم قال في رفق :  
— تفضل السجن تحت أمرك . . أنتظر سعادتك بدقة  
واحدة .

وخرج سريعاً من السجن وهو ينادى :

— يا شاو يش عبد النبي .

واختفى عن نظري ودفعتني دافع إلى النظر من نافذة للحجرة  
تطل على فناء المركز . فرأيت المأمور والجاو يش يسرعان إلى سجن  
المركز ويفتحانه ويخرجان منه أشخاصاً تدل هياهم على أنهم من  
أهالي النواحي ذوى الرخاء ويزجان بهم في حجرة التبغ والعلف  
ويغلقان عليهم بابها بالمفتاح فقلت لعبد المقصود افندى .  
— تعالى وطل بعينك ده ولا سجن الباستيل . المأمور أخفى  
بعض الأهالي في أودة التبغ .

فقال لى عبد المقصود فى شىء من التوسل :

— يابك الوقت بطل ، والسياسة متحكمة فى البلد ، ما فيش  
داعى للتدقيق . .

يعنى تترك الناس فى الحبس من غير جريمة ؟ ١٤ .

— ياسعادة البك ، رئيس المأمور ولا يخفك هو وزير الداخلية

ورئيس الوزراء في الوقت نفسه ، أمارئيسنا فهو وزير الحقانية فقط وقد سبق أن قضاة ووكلاء نيابة وفقوا للإدارة في ظروف سياسية مواقف من هذا القبيل قاموا نقلهم الصعيد !

— يعني نمضى على دفاتر المركز ونسكت ؟ ..

ياسيدنا البك ، إحنا حانكون أحسن من مين .. كان

غيرنا أشطر ..

— طيب ، قم استعجل لنا الدفاتر والسلام ..

١٩ أكتوبر . . .

رأيت أن الطريق الوحيد بعد ذلك أن أبحث عن ذلك الخاطب الذي كان قد تقدم للبت ريم . ولكن كيف نستدل عليه ونحن لا نعرف حتى اسمه ؟ فلنطلب إذن إلى المركز أن يأتى إلينا بأحد الجيران لعله يعرف الخاطب وليكن الجار امرأة ؛ فإن المرأة بطبعها فضولية ثرثارة . فما من جارة لا تعرف أسماء الخاطبين والمخطوبات في الحارة ، ولكن هل أستطيع الآن أن أكلف المركز بإحضار شاهد أو بالبحث عن مجرم ؟ إن السياسية وحدها هي كل شيء اليوم في المركز ؛ ولن أجد خفياً يلقى بالآلى أو امرى الساعة . فلنتصل نحن مباشرة بالقرية ونطلب إلى النقطة أن ترسل إلينا المرأة المطلوبة . وأمرت في الحال حاجبي فتقدم إلى آلة التليفون وأمسك بالبوق وجعل يصيح أكثر من ربع ساعة :

— يانقطة ! يانقطة ! ردى على يانقطة ! البك الوكيل جنبي .

يانقطة !

واسكن النقطة غضت طرفها الناعس عنا ولم تكلف نفسها عنا . الرد علينا ؟ واشتد غيظ الحاجب وجعلت يده تحرك جرس التليفون بقوة كادت تخلعه وهو من تليفونات المراكز التي لا توصل الكلام بين المتكلم والمخاطب حتى ينقطع نفس الاثنين من كثرة الصياح

وحتى ينقطع جبل الحديث مائة مرة ومرة تشببك خلالها جبال  
أحاديث أخرى من بلاد أخرى ومن مصالح مختلفة . فبينما يدور  
الكلام حول إرسال متهم إذا صوت يجيب في مسألة متعلقة بتفتيش  
الزى وبالفتحات ونوبات الترع ، وإذا آخر يتكلم في أنفاس القرعة  
ويطلب طلبات في لهجة الأمر والنهى . على أننا اليوم لانلقى رداً  
على الإطلاق . ويدق الجرس في يد الحاجب لا يقف لها دوران ،  
كأنه يدير طاحونة بن . ولا ينفك يصيح تارة مهدداً ، وتارة  
متوسلاً :

— أنا في عرضك يانقطة اكلمة واحدة يانقطة ، إخص عليك  
يانقطة ا ردى على يا ..  
فما تمالككت أن صحت فيه .

— شىء لطيف ا أنا قلت لك أطلب النقطة ، مش غازل النقطة ا  
-- يظهر يا سعادة البك أن النقطة خالية من حضرة الملاحظ  
والبلوكامين والكل كليلة ..

— النقطة خالية ..

— أيام انتخاب يا سعادة البك .

— والعمل ؟

— متصل بدار العمدة ونطلب التنفر والحرمة .

— اتصل



واستطعنا آخر الأمر أن نظفر بحضور الحرمة الجارة مع  
« مخصوص » وكان ميعاد غذائي قد حان وكان قد أجهدي العمل  
المعتاد بالمكتب . أعنى تحقيق التزويرات وقضايا الربا الفاحش  
والتلبس الوارد من المركز من « إيراد ، اليوم ، وأكثره الآن  
محاضر « تشرد ، ضد الأهالي غير الموالين للحكومة القائمة . وما  
أسهل هذا السلاح وما أقواه في يدرجال الإدارة فإن كل نجل كريم  
من أنجال الأعيان يمكن اتهامه بأنه لا يحترف صناعة ، ويمكن بذلك  
القبض عليه وحبسه أربعة أيام بإذن النيابة لحين التحرى عنه  
وطلب صحيفة سوابقه من مصر . وأين هو وكيل النيابة الذى  
يعارض المركز اليوم فى إصدار أوامر الحبس ؟ وقتت للغداء بعد  
أن أصدرت من هذه ماشاء الله والمركز وعدت بعد الظهر لسؤال  
المرأة ، فتكلمت كلاماً كثيراً لم أخرج منه إلا أن الفتى الخاطب  
يدعى « حسين ، وهو ليس من أهالى البلدة بل من بلدة مجاورة ؛  
— إسمه حسين إيه يا ولية ؟ فيه ألف حسين فى البلدا لقبه إيه ؟  
— ما عرفش لقبه ياسيدى البنت قالت اسمه « حسين ، وأنا  
مالى بقى اسأل عن أصله وفصله . أنا حرمة غلبانة فى حالى ، بعيد  
عنى ما أكره على إلاكثر الكلام . أنا طول عمرى ياسيدى فى  
الحارة ما أحشر نفسى فى كلام ولا فى سؤال . وأنا مالى ، قالوا  
ياداخل بين البصلة وقشرتها .

- اسكنى قلبت دماغى فى الفارع ، داهية تقلب دماغ اللى طلبك . يعنى لو عرضنا عليك الولد تعرفيه ؟

- أعرفه ياسيدى ياندامة ! وأنا بقى خلاص انعميت . .  
أنا كنت اسم الله على مقامك . .

- كفاية . . انت واحده والله الحمد لا تجي كتر الكلام ولا . .

- كتر كلام . . أبدأ وحياة شرفك . . أنا بعيد عنك

من يوم

بس !

وناديت الحاجب ، وأمرته بإخراج المرأة وإجلاسها فى الدهليز بجواره تنتظر حتى تطلب . وكانته بمخاطبة البلدة التى فيها الفتى ليحضر والفتيان الذين يسمون فيها باسم « حسين » بمن تنطق أحوالهم وأوصافهم على ما لدينا من المعلومات وجلست أنتظر ساعة وأنا أفكر فى قيمة هذا العرض ، القانونى ، . إنى لا أثق كثيراً بفراصة هؤلاء النسوة . ومازلت أذكر قضية قتل أتيننا فيها بزوجة القتل وعرضنا عليها المتهم بين أشخاص آخرين جئنا بهم عفواً من قاعة الجلسة المدنية المنعقدة فى صباح اليوم : وكان من بين هؤلاء شخص منكوود الطالع أنى يحمل مستندات شركته فى جاموسة ويسمع الحكم على خصمه بالطلبات . فإذا هو يجد نفسه قد زج بين الأنفار الذين أخذوا من قاعة الجلسة ليقفوا فى

صف طويل في قاعة النيابة . وقد أخرج عليهم وكيل النيابة امرأة شمطاء ، أمرها أن تبرز القاتل من بينهم . فتفرست المرأة في الوجوه وهي تدق صدرها وتدعو بالويل على قاتل زوجها . ودنت من القاتل الحقيقي ومرت عليه مر الكرام ، ووصلت إلى ذلك المسكين صاحب المستند الذي ليس له في الثور ولا في الطحين ، فلكمته في صدره لكمة ترديه و « رقت » بالصوت :

— غريمى !

فأرتج على الرجل وقد فوجىء ثم تمالك وقال :

— ياستى أنا أعرفك ؟

فلم تسأل عليه المرأة ومضت تولول .

— غريمى ! دى . غريمى .

والتفت إلى الرجل كالمستجير :

— ياسيدى البك . انهضنى . أنا عمري لاشفتها ولا قابلتها . . .

فقام وكيل النيابة وهو أنا ، ولاخبر بأسئلته « التجارية » المحفوظة عن ظهر قلب « المعبرة من « روتين » العمل التى إذا لم تسأل أحصتها الرياسة علينا هفوة ، وإن لم يكن هناك محل لنوجيها ، أسئلة سخيفة لاتعنى شيئاً فى ذاتها ولكن القضاء يعتبرها محرجة مضيقة على خناق المجرم :

— بينك وبينها ضغائن ؟

— أبدأ ياسيدى ولا أعرفها .

فتمهلت قليلا لكي ألقى ذلك السؤال الذى يلقى كل وكيل نيابة وكل قاض فى ثقة واطمئنان كما يلقى يده على الدليل المبين :

— إذن ما سبب ادعائها عليك ؟

— أنا عارف مصيبة على الصبح وارتمت على .

— إحجزه يا عسكرى !

— يحجزنى ؟ أنا ياسيدنا البك لى قضية مدنية تحت . اعمل

م معروف خلىنى أروح لشغلى

وألقى الرجل فى الحبس الإحتياطى . ونوديت قضيته المدنية فلم يحضرها بالضرورة فشطب دعواه وجلس الرجل القرفصاء على الأسفلت ومستنداته فى يده يفكر فيما آل إليه حاله بلا مبرر ولا جريمة .

تذكرت ذلك وقلت فى نفسى : « كلا لا ينبغى أن نبالغ فى قيمة العرض القانونى ، إن هؤلاء الفلاحين بأعينهم التى أكلها الصديد منذ الطفولة ، ومداركهم التى تركت هملا على مدى حكم ولاية من جميع الأجناس لا يمكن أن يركن إليها فى حكم أو تمييز وهل هناك أعجب من « عرض قانونى » آخر قمت به فى قضية تزوير ، وكان المتهم « أفنديا » وقد وضعته بين أشخاص مطر بشين وجئت بالمجنى عليه الفلاح وامرته يا خراج « غريمه » من بين هؤلاء ، فنفرس فى الوجوه

لحظة ثم ترك الصف بأكمله ووقف تجاهي أنا وكيل النيابة المحقق وأطال النظر في وجهي وقد بدت في عينيه علامات الشك الذي سيتبعه اليقين أنه وقع أخيراً على المجرم الحقيقي؛ وكان حاضراً عندي وقتئذ أحد كبار مفتشى النيابات زائراً وقد أراد أن يشهد عملية العرض . فهاأنى أن يطيل الرجل شكه في أنأ فيبدو للبفتش رأى لأأرضاه ، فانهزت الفلاح وأمرته أن ينظر فى الصف الذى أمامه ويخرج منه المتهم فكان اللعين يمر بالصف مرارياً ويعود فيلقى بصره على ويفحصنى من رأسى حتى إخصص قدمى فخص المشتبه المستريب . ولن أنسى اضطرابى يومئذ . وقلت فى نفسى : ، الله يكون فى عون المعروضين ، ولم أجد عند ذلك مندوحة من أن أنهى عملية العرض فى الحال قائلاً فى سرعة : ، لم يستعرف المجنى عليه على أحد ، وأمرت الحاضرين بالانصراف ، فخرج الرجل وهو مازال يختلس إلى النظر . كلا إن تلك الإجراءات التى تتبع فى أعمالنا القضائية طبفاً للقوانين الحديثة ينبغى أن يراعى فى تطبيقها عقلية هؤلاء الناس ومدى إدراكهم وقدرتهم الذهنية . أو فلترفع تلك المدارك إلى مستوى تلك القوانين !

وحضر المطلوبون وأوقفناهم فى صف طويل وأدخلنا المرأة

فتقدمت وهى تقول :

— بسم الله الرحمن الرحيم .

ولم أترك لها مجالاً للثرثرة . فقد انتهرتها :

— كلمة ورد غطاها يا ولية . من في الحاضرين الخاطب ؟ ...  
فدنت من أقرب الفتيان إليها ونظرت إليه بعينها ، العمشاء ،  
بنظرة « العرضحالجى الأضبش » ، إلى « عريضة » ، يرفعها في يده حتى  
تمس أنفه . وقالت له في صوت خافت تريد ألا يصل إلى مسامعى :  
— أنت « يا ادلعدى » ، مش اسمك حسين ؟  
فأدركت في الحال مبلغ علم المرأة بما انتدبت لأجله وقلت لها  
في شدة :

— كل الجدعان اللى قدامك يا وليه اسمهم حسين

— قطيعة !

لفظتها المرأة في صوت الواقع في حيرة من أمره ثم انجهدت إلى  
التلى وسألته :

— أنت منين يا جدع انت ؟

فأجابها في صوت هادىء :

— من امبابه ياستى !

فقالت على الفور فى لهجة الجد :

— دى بلد الحمير يا جدعان دا كان مرة « ادلعدى » جوزى

الاشترى منها حمار ...

فلم أتمالك أن صحت :

— أخرجى يا « قرشانه » يا « وحشة » ياقليلة الحيا . . ضيعت  
وقتنا : نهار بحاله إخص على دى شهود . .  
قلتها من غيظى وأنا ليس من عادى « القباحة » ، ولكن هذه  
المرأة أفهمتى أنها رأت الخاطب بعينها وتعرفه إذا حضر أمامها  
قد اتضح الساعه أنها لا تعرف إلا إسمه وحتى هذا الإسم الأبر  
« حسين » من أدرانا إذا كان هو اسمه الحقيقى أو أنها كلبه ألقنها على  
عواهنها هذه المرأة « الهجاصة » وسألت الحاضرين عن الخاطب فلم  
أجد بينهم من يفهم غرضى أو من يعرف شيئاً عن الموضوع  
فصرفتهم . ولم أكد أخلو إلى نفسى وأفكر فيما ينبغى عمله بعد  
تلك حتى فتح الباب ودخل على مساعدى آتيا من البندر حيث كان  
يترافع فى قضايا الجنائيات التى أحلتها عليه وقد رأيت وجهه نضراً  
مشرقاً وابتدرنى قائلاً :

البنادر هى النعيم ياخسارة رجعنا بسرعة إلى جحيم الريف !

— أخذت أحكام براءة ؟

— أنا نزلت فى أحسن بانسيون وصرفت ضعف بدل السفرية .

— رد على سؤالى . القضايا عملت فيها إيه !

فوجم الشاب قليلاً ، ولم يكن ينتظر منى الكلام فى العمل والجد  
منذ اللحظة الأولى ، وكان يحسن نى فعلاً أن أكون به لطيفاً رقيقاً ،  
ولكن القضية التى فى يدي أتعبت أعصابى ، أو لعل شيئاً من الحسد

الحنفي قام في نفسى إذ رأيت هذا الفتى عائداً كالزهرة المشرقة من ذلك  
النعيم الذى يقول عنه بيننا أنار اسف في أغلال الوظيفة غارق في عمل  
ذى مسئولية لا يقف ولا ينتهى وتنهت مع ذلك لحشوتى وأردت أن  
أبتسم وأن أتكلم في غير القضايا ولكن المناسبة كانت قد فاتت  
ومضى المساعد يحدثنى عن القضية التى ترفع فيها قائلاً: إن المتهم  
فيها قد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة لأنه قتل رجلاً في نظير  
مبلغ خمسة جنيناهت فالقاتل رجل سودانى بدوى قوى الجسم  
يحترف إذهاق الأرواح . وقد اتفق معه أحد الفلاحين على قتل  
خصم له وحررت الكميالة بثمان « الروح » وانطلق ذلك المحترف  
حاملًا ببندقيته كما يحمل الفنان قيثارته . ووقف بها تحت نافذة  
المسجد حتى دخلت « الروح » العالية وسجدت تصلى فأرسل إليها  
ذلك المتربص من بين قضبان النافذة قبلة واحدة ذات صفير من  
« ماسورة » أرغوله الجهنمى كانت فيها الكفاية وهى صناعة تحتاج  
إلى ثبات يد ، كصناعة النجارة ، فالنجار الحاذق يضرب المسماة بضربة  
واحدة لا عوج فيها ولا ميل ، تصيب اللوح فى الصميم . وكان  
مصير هذا الدم الضياع كالمعتاد ومآل القضية البراءة ، لولا خلاف  
دب بين البائع والمشتري . فالقاتل سلم بالبضاعة ، حاضرة . ولكن  
المشتري مظل بالثمان . ولم يطق القاتل المحترف صبراً على هذا  
« الزبون » المتوقف عن الدفع . فصاح به وسط الجلسة غير مراعاة  
حرمة قضاء ولا قضاة .



— عايزنى أقنله لوجه الله ؟

وترك « زبونه » والتفت إلى هيئة المحكمة :

— اشهدوا ياناس على قلة الشرف . أنا برده استحق الشنق ؟

إلى ما قبضت مقدم . هو يخرّب البيوت إلا الشكك !!

وضحكت قليلاً وأنا ومساعدى . وقد أبدت له ملاحظتى على هذه التجارة أو الصناعة المعروفة فى الريف . وهى الاستنجار على القتل . إن الفلاح المصرى يلجأ كثيراً إلى محترف يقتل له كما كان بعض ملوكنا الأقدمين يلجأون إلى الجنود المرتزقة . أهو نقص خلقى فى الفلاح يضاف إلى أمراضه الجثمانية والفكرية والاجتماعية الكثيرة . أم إنها قلة مقدرة وضعف ثقة بالنفس منشؤها اشتغاله بأعمال العبيد من قديم فى الأرض والزراعة وترك الفروسية والجنديه للبعيرين وأقربهم بنا عهداً الأعراب والأتراك . إن الملاحظ على أشهر محترفى القتل فى الأرياف أنهم من دم أجنبي . أم أن الفلاح يحب السلام ويأتف أن يزاول سفك الدماء بيده التى تبذر البذر ويخرج منها الخير لست أدرى . إن الأمر يحتاج إلى درس خاص ويكفيننا نحن المتصلين بهذه أن مهنتنا سخية بمادة البحث والملاحظة . وانه طول حياته بهالاي ينبغي أن يسير مغمض العينين فى خير مهنة تكون الرجل تكوينا صحيحاً . فوكيل النيابة إن هو إلا حاكم صغير فى مملكة صغيرة إذا فهم كل شيء فى هذه

المملكة ، ولاحظ كل شيء ودرس الناس وطبائعهم وعرآئهم ، فقد استطاع بعد ذلك أن يعرف تلك المملكة الكبيرة التي هي دولته بل استطاع أن يفهم ذلك العلم الأوسع الذي هو « الإنسانية » .  
ولكن كم من رجال النيابة أو القضاء يستطيع أن يلاحظ ؟ إن قوة الملاحظة هي أيضاً هبة عظيمة لا يملكها كل الناس . وقد وعى مساعدي هذا الكلام وهو على قسط وافر من الذكاء فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وأخبرني أنه لاحظ . أمراً استوقف تفكيره في جلسة الجنايات ، ذلك أن المستشارين ينطقون بأديء بدء بالحكم . ثم ينصرفون بعد ذلك إلى كتابة الأسباب والمنطق الذي يتصوره هو أن يكون الأمر على العكس . ملاحظة قيمة ولقد أخبرني فعلاً أحد المستشارين من أهل الصراحة أنه بعد أن نطق ذات مرة بالحكم في جنابة خطيرة ورجع ليلاً إلى مكتبه وورقه وملفات القضية ليكتب الحثيات ، وقع نظره على أقوال وعبارات في محضر جلسة اليوم ، وفي المحاضر السابقة ، وفي تحقيق النيابة استخلص منها تفكيره الهادي الرزين في ذلك الليل الساجي ما لوعرفه قبل النطق بالحكم لكان حكمه قد تعدل وتبدل . ولكن ما الفعل الآن وقد تم النطق بالحكم وما من سبيل إلى تغييره بأي حال ؟ لا يستطيع أن يصنع شيئاً . فجعل همه تلك الليلة أن يستخرج من الأوراق جميع الأسباب التي يبررها النطق بالحكم وكمن الحثيات الطويلة تكتب تبريراً وتدعيماً لحكم سريع مضى النطق به ، لا تفسيراً لعدالة ولا تمحيصاً لحقيقة .

٢٠ أكتوبر . . .

قمت في الصباح بجرد خزينة المحكمة . فالنيابة هي التي من شأنها مراقبة الخزينة ، وعليها أن تقوم بهذا الجرد مرتين على الأقل في كل شهر بطريق المفاجأة . ويظهر أن كلمة المفاجأة، وضعت في اللوائح والتعليمات من قبيل التشميق كما توضع في إعلانات المسارح، فهي في العمل لا وجود لها . وقد جرت العادة أن ينسى وكيل النيابة لكثرة مشاغله هذا الجرد فلا يذكره إلا الصراف المقصود بمفاجأته فهو الذي يطلب في إلحاح حضور البك الوكيل «ليفاجئه» بالجرد في تمام العاشرة قبل إيداع الأموال في خزينة المديرية حتى يسدد الخانة طبقاً للقانون . وفي أكثر الأحيان لا يشعر وكيل النيابة إلا وقد فوجئ . بالدفترا الخاص بالخزينة يعرض عليه مع المحضر محرراً باسمه «نحن فلان وكيل النيابة قمنا اليوم فجأة بجرد الخزينة ، فوجدنا بها كذا أوراناً مالية وكذا فضه وكذا أشياء ثمينة وكذا أمانات ، فبوقع وهو لم يتحرك من كرسيه وهو يقول : خذوا إمضا وحلوا عني بلا وجمع دماغ غير أني أنا شخصياً أتتقل بالفعل وأشهد الخزينة وإن كنت أوقع آخر الأمر على كل حال دون أن أطيق صبراً على عد التهود التي توضع أمامي واتهمت من هذه المأمورية ، وعرجت على مخزن النيابة في طريق أفدسه ، بالمرّة ، وهو عبارة عن حجرة تشبه دكان « ألف صنف » فيها من أصناف البنادق والغدارات الريفية

والسكاكين والشراشر والمناجل والفؤوس والبلط والنبايت  
والهراوات و « اللبد » و « البلغ » و « الجلايب » المملوطة بالدم والطين  
و « الصدارى » المثقوبة بالرش والبارود ؛ كل عليه رقمه وتاريخ ضبطه  
ورقم القضية التى ضبط على ذمتها . وعندى أن نظرة واحدة تلقى  
على مخزن نيابة أى بلد تدل فى الحال على لون هذا البلد وعقليته  
ودرجة حضارته . ولا شك عندى فى أن مخزن نيابة « شيكاغو »  
مثلا لا يمكن أن يحوى مطلقاً هراوة أو شرشرة . وصعدت بعد  
ذلك إلى مكنتى ، فوجدت حضرة القاضى « المقيم » فى الانتظار وقد  
أحضر له الفرائش القهوة ، فما كاد يرانى حتى صاح :

— خلاص الفوضى دبت فى البلد !

فأردت أن أفتح فى أسأله الإيفصاح ؛ فلم يمهلنى ومضى يقول :

— راحت هيبة الأحكام !

— إيه المسألة ؟

— المسألة ياسيدى أنى أصدرت حكماً مدنياً ضد عمدة من

الموالين للحكومة وراح المحضر ينفذ عليه ، تعرف حصل إيه ؟

— لا

— انضرب بمعرفة العمدة ، علقه ، لكن « نضيفه » ، واتحبس

أربعة وعشرين ساعة فى حجرة التليغون

- والمرکز عمل لها قضية ؟
- أبدأ . ماهی هنا الخطورة لاقضية ولا مذكرة ضحكوا
- على المحضر وقالوا له يسحب شكواه وصرفوها .
- ماداموا صرفوها اتھينا .
- اتھينا إزای ؟ أنا لا يمكن أسكت عن مسألة زى دى . دا
- اسمه إجرام ! البوايس يجرم ..
- يظهر أن حضر تك أشتقت لحر وجه قبلى
- ينقلوا قاضى وجه قبلى لأنه أراد منع المركز من العبث ..؟
- عملوها كثير . وسبق نقلوا قاضى أقاصى الصعيد لأنه
- أفراج فى قضية معارضة عن متظاهرين ضد الحكومة ، مع أن هذا
- القاضى كان من المحايدين البعيدين عن الأحزاب وعن السياسة .
- ولا يخفى أن بينك وبين الأمور سوء تفاهم عاثل . وساعتها تلقى المأمور
- حزر التقارير السرية عنك واتهمك بأنك من خصوم الحكومة ،
- وأنك من أرباب الفتن والدسائس ، وأنك تضطهد أنصار الوزارة ،
- وأنك خطر على سياستها الحاضرة إلى آخر هذا الأسلوب المعروف
- شىء جميل البوليس يحزر التقارير السرية ضد القضاء ؟ !
- حصل .
- والعمل إليه ؟
- أترك لى المسألة أنا أتحرى من المركز بلطف وأجرى اللازم ..

— لهذا الحد تعبت السياسة عندنا بالعدالة والنظام والأخلاق

أعوذ بالله شيء مخيف...!

وجعل يهز رأسه أسفاً وحنناً ثم التفت إلى نجاة وقال :

— دا صحيح تصور فضيلة القاضي الشرعي « الضلالى » عامل

اليوم أنه صديق المأمور الخميم مع أنه كان يبكره، كراهة التحريم

من بعد حادثة الأجزاء !

فأبدت عجبى . إني حقيقة كنت قد سمعت من المأمور فيما سمعت

من أخبار القاضي الشرعي هذه الحادثة : أن أهالى البلد وأعيانها

لاحظوا افتقار البلد إلى أجزاء خانة ، أصولية ، تغنيهم عن البنادر

الكبيرة فاكثبوا فيما بينهم بمبالغ أسسوها أجزاء خانة نظيفة كاملة

الأدوات وعينوها ( أجزاء جى ، قانونى هو رجل سورى يسمى

« جبور » ثم تباحثوا فيمن يصلح مشرفاً على مالية هذه الأجزاء خانة

وعلى إدارتها . ووقع الاختيار فى آخر الأمر على فضيلة القاضي

الشرعى ومن غير فضيلته بلحيته الوقورة وسبحته الطويلة يؤتمن

فى هذه البلدة على أموال المسلمين وغير المسلمين من المساهمين ؟

ووافق المأمور على تنصيب القاضي الشرعى مشرفاً وتكرم فضيلته

وتسلم مهام عمله بأن جعل مجلسه عصر كل يوم أمام باب الأجزاء خانة

حيث يتنحى ويبدأ باسم الله والصلاة على نبيه وآله وصحبه . ثم

يصبح :

— ياخواجه جبور . القهوة والشيشة !  
ثم يجتمع عليه من أصدقائه وأقاربه الآتين من الكفور عدد  
كثير كل يوم ، فأمر لهم بالقهوة أو الشاي . وكل هذه الطلبات  
طبعاً على حساب الأجزخانة وهو لا ينسى مطلقاً أن ياتي نظرة  
على مستحضرات المحل قبل انصرافه وهو يقول لجبور :  
عندك صابون بمسك من العمال ! زجاجة الريحة ،  
والكلونيا ، دي لا بأس بها .

ولا يكاد يدخل فضيلته منزله حتى تكون هذه البضاعة التي  
أعجبهته سبقته إلى البيت ، ويجلس أحياناً أطفاله إلى جواره يباب  
الأجزخانة أو يتركهم يلعبون حوله فإذا جاعوا أو بكوا صاح  
القاضي في الأجزجي القانوني :

— ياخواجه جبور ! هات للأولادكم قرص نعناع من عندك !  
حتى ضاق ذرع الأجزجي جبور آخر الأمر فصاح في القاضي ذات يوم :  
— شوها العما !

ونشب الشجار بين المشرف والأجزجي . وأقسم جبور أن  
يكسر ساق القاضي إذا حضر إلى الأجزخانة بعد ذلك . واستغاث  
بالمأمور ، وعرض عليه ما وصلت إليه حالة الأجزخانة . فإذا هي  
موشكة على الإفلاس ، فقد اختفت مستحضراتها ، ونضبت مواردها ،  
ولم يبق أمل في بقائها ؛ فإن الأجزجي هو الآخر اقتداءً بفضيلة

المشرف الوقور لم يقصر في الإجهاد من جهته على الباقي من النقد،  
والبضاعة والأدوات، وتغيظ المأمور وصاح في الأعيان المساهمين:

— الحق علينا اللي صدقنا اللحية والسبحة !

ومنذ ذلك اليوم والمأمور دائم التشهير بالقاضي الشرعي  
والقاضي الشرعي من جهته دائم النيل من المأمور .

ولكن السياسة قد جعلت رجال الإدارة اليوم أصحاب سلطة  
مخيفة ، وقد خشى فضيلته على نفسه ، ورأى بحكمته أن الأمان في

مصاحبة المأمور . فلم يحجم عن التقرب إليه والتزلف له ؟

مر بخاطري كل ذلك وأنا جالس وأمامي القاضي الأهلئ ، ولم  
أتمالك فقلت كالمخاطب لنفسي :

— لا بأس من الصلح لكن في الظروف الحاضرة . فيه شيء  
اسمه كرامة ..

فرفع القاضي يده في حركة ذات معنى وقال :

— كرامة مين « يامونشير » !

ونهض يريد الإنصراف وهو يميل على ويقول بصوت منخفض :

— كلام في شرك . في يوم حضر إلى بيتي فلاح معه خروف

وقال « الهدية » . فقلت له « هدية إيه ياراجل » ؟ فقال : « الهدية

اللي تم عليها الاتفاق علشان رد الولاية امراتي » . ففهمت وقلت له



في الحال : ، إنت يارجل غلطت في البيت إنت قصدك  
شخص آخر .

فلم أبد دهشة كبرى وأطرقت برأسي . وسكت القاضي محدثي  
قليلا . ثم تحرك نحو باب الحجرة وحياني بيده تحية مختصرة  
وذهب ، وجلست وحدي قليلا أفكر في كل ذلك ، ورأيت أن  
أقوم إلى المركز في شبه زيارة خاصة لأستطلع من المأمور عما  
أخبرني به القاضي ، فانطلقت بمفردي وخلق حاجبي حتى بلغت  
حجرة المأمور . فوجدته في هذه المرة أيضاً مع أحد العمدة يحادثه  
في شبه عنف . ولم تكن سيما هذا العمدة تم عن يسر ولا عن  
وقار ، ويخيل إلى أنه من أجلاف العمدة . فالعمدة « كالجرادة »  
يتخذ شكل الأرض التي يولد فيها . فالأرض الخضراء تخرج الجراد  
الأخضر ، والأرض القحلاء تخرج الجراد الأغبر . وهذا العمدة  
الأغبر لاشك من بلاد قاصية فقيرة على حدود المركز قريبة من  
الصحارى وسلبت على المأمور وقلت له باسمياً :

— دائماً مع العمدة !

فقال في نبرة تعب :

— نعمل إليه ياسيدي !

ثم أجلسني وطلب لي القهوة . إذ على الرغم من اعتكافي عنه  
وعن ناديه ، فهو يحترمني ولا يحمل ما يحمله لغيري من الضغن

فإني حريص دائماً مع رجال الإدارة على تنفيذ أوامري في مظهر بسيط لا يشعرهم بفضاضة الأمر . واستأذنتي المأمور في إتمام حديثه مع العمدة لينتهي من شأنه ويتفرغ لي فأذنت له . فالتفت إلى الرجل وقال له في صياح وتهديد :

- طول بالك . انت يظهر عليك إنك مش عارفني . والله لا بد من أنى . .

فقاطعه العمدة مستعظفاً :

- أنا رجل غلبان . . .

فمضى المأمور في وعيده :

- انتظر ! إن ما كنت أدخلك البرلمان ، ما ابقاش أنا مأمور المركز :

- ليه أنا عملت إيه بس تدخلني البرلمان !

قالها الرجل في توسل وارتياح فضحكت وبعجت والتفت إلى المأمور قائلاً :

- كشوف الانتخابات في جيبه ، وهش عارف حضرته

البرلمان ده بيتقى إيه ويسموهم عمد ونشتغل معهم ١١١

ثم عاد المأمور والتفت إلى الرجل قائلاً :

- تفضل من غير مطرود !

فخرج العمدة ذليلاً كأنه خادم أو مجرم ، وقلت في نفسي هذه

الذلة التي يذوقها في حضرة رجال الإدارة لن تنهيب سدى ، فهو سيذيقها بعينها لأهالي القرية التي يحكمها ، فإن كأس الإذلال تنتقل من يد الرئيس إلى المرؤوس في هذا البلد حتى تصل في نهاية الأمر إلى جوف الشعب المسكين وقد تجرعها دفعة واحدة

وجلس إلى المأمور يعرف سبب « تشريفي » المركز بالزيارة ، فأخبرته أنه « الشوق » فابتسم المأمور ايتسامة غير المؤمن بهذا السبب الأفلاطوني ، ولم أصر كثيراً على كلمتي . وقلت في هيئة الجذ: — بلغك يا حضرة المأمور أن أحد المحضرين ضربوه وحبسوه أثناء تأدية وظيفته ؟

— فأجاب من فوره :

— ما عنديش خبر .

— حصل تبليغ للمركز ؟

— لو كان حصل كنا ضبطنا واقعة وعملنا قضية .

— بالتأكد .

وأطرقت قليلاً ، وفكر المأمور لحظة ثم قال :

— حد بلغ سعادتك بشيء ؟

— لو كان حد بلغني كنت في الحال باشرت التحقيق .

— مؤكد ؟

— المسألة يظهر إنها مجرد إشاعة .

فانطلق المأمور يقول :

— هي وحياتك إشاعة ، خارجه من بطن المحكمة لتشويه سمعة المركز ، وأنت لا تخفك أن حضرة القاضي « طالع فيها » وغرضه يشنع علينا بأى طريقة . .

وأراد المأمور أن يسترسل ، فبادرت بإغلاق هذا الباب حتى لا أزعج بنفسى فى هذا الشجار القائم بينهما حسبى أنى أفهمت المأمور من طرف خفى أنى لست بغافل عن الموضوع ، وأنى لا أحجم عن اتخاذ الإجراء اللازم فيه ، ونهضت فى الحال ، ونهض معى وقلت مازحاً

.. والانتخابات يا حضرة المأمور . . . ؟

— عال .

— ماشيه بالأصول ؟

فنظر إلى مليئاً ، وقال لى فى مزاح كمزاحى :

— حانضحك على بعض ! فيه فى الدنيا انتخابات بالأصول !!

فضحكت وقلت :

— قصدى بالأصول : مظاهر الأصول .

— إن كان على دى اطمئن .

ثم سكت قليلاً ، وقال فى قوة وخيلاء :

— تصدق بالله ؟ أنا مأمور مركز بالشرف . أنا مش مأمور

من المأمير اللي أنت عارفهم ، أنا لا عمرى أتدخل فى انتخابات .  
ولا عمرى أضغط على حرية الأهالى فى الانتخابات ، ولا عمرى  
قلت انتخبوا هذا واسقطوا هذا . أبدأ ، أبدأ ، أبدأ . أنا مبدئى  
ترك الناس أحراراً تنتخب كما تشاء .

فقطاعت المأمور وأنا لا أملك نفسى من الإعجاب :

— شىء عظيم يا حضرة المأمور ، بس الكلام ده مش خطر  
على منصبك ؟ أنت على كده .. أنت رجل عظيم ...  
فضى المأمور يقول :

-- دى دائماً طريقي فى الانتخابات : الحرية المطلقة . أترك  
الناس تنتخب على كيفها ، لغاية ماتم عملية الانتخاب ، وبعدين  
أقوم بكل بساطة شايل صندوق الأصوات وأرميه فى التربة ،  
وأروح واضع مطرحه الصندوق اللي احنا موضيينه على مهلنا .  
— شىء جميل !

قلتها فى شىء من الاستغراب مزوج بخيبة الأمل ، ولم أشأ أن  
أعقب على ما سمعت ، ومددت يدي مسلماً ، وخرجت وخرج خلفي  
المأمور يشيعنى إلى الباب الخارجى ، وإذا بي أرى وأنا أجتاز فناء  
المركز شر ذمة من الخفراء تتأهب للشحن فى اللوريات ، ومن  
بينهم الشيخ عصفور بأسماله وعوده الأخضر ، فالتفت إلى المأمور  
أسأله فى ذلك ، فقال وهو يشير بيده إلى الرجال :

أنفار قائمة لحفظ النظام ساعة إعطاء الأصوات

— والشيخ عصفور ماله ومال الانتخابات ؟

— مو اويله تؤثر على عقول الفلاحين !

— يعنى منتدب للدعاية !

فابتسم المأمور ابتسامة المصادق على ملاحظتي ، وابتسمت أنا

أيضاً وأنا أضيف قائلاً :

— حتى الشيخ عصفور شغلته في السياسة !

فنظر إلى المأمور نظرة ذات معنى ، وقال في تهند :

-- نعمل إيه بس !

وفي هذه العبارة وهذا التهند كل الكفاية في جعلي أرثي لحال

هذا المأمور وأقدر دقة موقفه ومسئوليته أمام الرؤساء الذين

يطلبون إليه نتائج معينة بالذات بكل الوسائل التي يراها مؤدية إلى

الغرض ، فإن أحجم أو تردد نكلوا به بغير رحمه ولا شفقة .

ومررت في سيرى بجوار الشيخ عصفور فابتدرته .

-- البنت ريم راحت فين ؟

فنظر إلى الرجل شذراً ولم يعن بالرد على ، فأعدت عليه

الكرة في شيء من الرفق والاستعطاف :

-- ريم ياسيدنا الشيخ خلي نفسك ويانا في مسألة البنت ريم !

فهز الرجل رأسه ولوح بعوده ، وقال مترنماً :

إيش راح ينوبك  
من الشكيان ويفيدك  
ليه ما حكمتش  
على طيرك وهو في إيدك  
فابتسمت وقلت للشيخ عصفور وأنا أشير بأصبعي إلى المأمور:  
— قل لحضرة المأمور هو اللي استلم الطير!

٢١ أكتوبر . . .

ماكدت هذا الصباح أرشف فنجان القهوة على مكثي حتى وردت إشارة تليفونية بوقوع حادثة تسمم في دائرة المركز : امرأة تناولت من مطلقها فطيرة فظهرت عليها الأعراض ، وهي تهمة بسمها للتخلص من النفقة الشرعية . كلام معقول ، ومسألة تستدعي التحقيق من غير شك . ولكني من جهة أخرى أعرف قضايا التسمم ، وما فيها من « قرف » خصوصاً على الصباح . وأعلم أني سأنتقل فأجد امرأة عاتمة في بركة من القىء والبراز . وكلها وجهت إليها سؤالاً تلقيت جواباً لا من الكلمات بل من ال... أعوذ بالله ! ولم أتمالك وأخرجت مندبلي وبصقت فيه . وجعلت أفكر في إحالة هذه القضية على المساعد . وطلبته بالفعل فحضر فسألته الإشارة . فمر عليها بنظرة سريعة وصاح :

— تسمم ؟ وأنا عمري حققت قضايا تسمم أو حتى حضرت تحقيق التسمم !

كلامه هو الآخر معقول . خصوصاً التسمم . حتى أنا القديم المتمرن ، لا أستطيع تحقيق هذه القضايا إلا ومعنى « الاستمارة » المنصوص عنها في تعليمات النائب العمومي . هذه الاستمارة فيها أسئلة معينة بالذات لا بد من سؤالها وتلقى الجواب عنها وترفق



صورة من هذه الأسئلة والاجوبة مع تقرير وجيز بالقطر ميز  
الحاوي « لعينات ، القء والبراز لإرسالها للتحليل . هذا مع عدم  
نسيان قص أظافر المتهم وقص جيوبه وإرسالها كذلك داخل  
أحراز مختومة للتحليل الكيماوى . إذ كثيراً ماتكون آثار الزرنيخ  
عالقة بالأظافر والجيوب . وناديت كاتب التحقيق ، وأمرته بتهيئة  
اللازم للقيام وطلبت إليه الاستمارة المذكورة التى عليها نظرة  
وأ تذكر ما فيها . فأحضرها وأحضر معها التعليقات فقرأت مايلي :

فقرة ١٤١ -- عند إرسال الأحراز إلى القلم الطبى الشرعى ...

على النيابة أن ترسل فى آن واحد للنائب العمومى .. الاستمارة

الآتية بعد استيفاء جميع الخانات بالضبط :

( ١ ) تاريخ التبليغ عن الحادثة .

( ٢ ) إسم المصاب وعمره وجنسيته .

( ٣ ) هل كان المصاب فى صحة جيدة قبل الإصابة ؟

( ٤ ) الأعراض التى لوحظت كالتىء ، الاسهال . الألم ، العطش

ألم الرأس ، الدوار ، فقد قوة الأطراف ، التقلصات ، النعاس ،

العرق ، التيبس حالة الحدقتين ، النبض ، التنفس !

( ٥ ) هل كان المصاب يشكو من مذاق خاص فى فمه من الطعام ؟

( ٦ ) هل حصل للمصاب تخدير أو تنميل بلسانه وأطرافه ؟

( ٧ ) هل حصل للمصاب غيبوبة ؟

(٨) هل حصل له تشنجات أو التواءات بالعضلات ؟

(٩) هل ظهرت الأعراض فجأة ؟

(١٠) هل سبق أن حصل للبصاب حالة تشبه هذه ؟

(١١) الفترة بين تعاطى المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض

ملاحظة -- يجب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة عما تقدم

أى أنه لا يقال مثلاً بعد اليوم الثانى بثلاث ساعات أو فى يوم

(الاثنين) بل يقال مثلاً ابتدأت الأعراض فى الساعة ٤ بعد الظهر

يوم ١٦ شهر كذا سنة كذا وأول ما لوحظ منها هو كذا وذلك فى

الساعة ٤ مساءً أو صباحاً بالضبط . . . .

شئ جميل جداً !! كل هذه الأسئلة ينبغى أن تطرح على مصاب

لا يعرف رأسه من رجليه . والأعجب من ذلك أن نطالبه بأن يخبرنا

بأن الأعراض ابتدأت فى الساعة كذا بالضبط . إذ لا ينبغى أن

يقال مثلاً يوم (الاثنين) . بل على هذا المصاب المسكين الغارق فى

متحصلات جوفه الشاعر بالدوار وفقد قوة الأطراف والتقلصات

والنعاس الخ الخ . باعتراف الاستمارة . . . على هذا الرجل أو هذه

المرأة الفلاحة الساذجة التى لا تحمل فى جيبتها ساعة وربما لم ترفى

حياتها الساعة أن تقول لنا إن الأعراض لوحظت أول ما لوحظت

فى الساعة ٣ والدقيقة بالضبط !!

النهاية . فمنا نصب هذه الأسئلة على رأس المرأة المسمومة .

واصطحبت معي المساعد يشاهد حتى تزول حجته في المستقبل غير  
أننا ماكدنا نتحرك حتى وردت إشارة تليفونية أخرى قدمها إلى  
الحاجب فقلت :

— نهار باين من أوله !

وقرأت فإذا هي إخطار من المستشفى الأميرى بوفاة قمر الدولة  
علوان . فصحت : « مات الرجل قبل أن نعرف منه سر الموضوع » .  
وطلبت قلباً وأشرت في الحال على ذيل الإشارة العبارة المألوفة في  
مثل هذه الحالة : « نأمر بتشريح الجثة » . وقلت للمساعد أن يذهب  
لحضور التشريح وإفادتي بنتيجته بمجرد الفراغ منه فمضى هو إلى  
المستشفى ومضيت أنا إلى منزل المرأة التي أكلت الفطيرة ، وكان  
الأمر فعلاً كما توقعت . وجدت المرأة في صحن الدار وحولها  
جاراتها لم يتركن فيما يخيل إلى آنية ولا حلة ، ولا كروانة ، في  
الحرارة إلا أتين بها ووضعنها تحت فم المصابة المطر وحة أرضاً  
تلوى وتنحسرج . ونظرت نظرة إلى كاتب التحقيق فهم منها أن  
يفتح المحضر ، وتقدمت بين الأواني المملوءة حتى دنوت من الجني  
عليها وسألتها .

— اسمك وعمرك وجنسيتك ؟

فلم تجب ولم يبد على وجهها الباهت المتقلص العضلات أنها  
فهمت ظني . فأعدت عليها الكرة في شبه صياح ، فلم يخرج من فمها

غير أنين طويل ممزوج بشروع في قبيء جديد . وقد أسرع بعض  
النسوة إليها يسندن رأسها المائل بأكتفهن ، وهن يتهاמשن :

— أيوه يسديها في غلبها !

فأجبت مؤمناً على منطقهن وكأني أخطب نفسي :

— والله كان بودى أتركها في غلبها ، لكن أععمل إليه ؟؟ قلم

النائب العمومي في انتظار الاستمارة والقطر ميز !

وتشجعت امرأة من النسوة وقالت لي :

— « مش ادلعدى » حضرتك طالب تعرف إسمها؟ إسمها نبوية .

— نبوية إليه ؟

— لأ مانعرفش غير نبوية . أهى في الحارة كنا نقول لها

تعالى يانبوية روحى يانبوية .

ولكن هذا لا يكفى . ولا بد من كتابة إسمها كاملاً فتوسلت

إلى النسوة أن يساعدننى في حملها على النطق دقيقة واحدة فتكأثرن

عليها ورفعن رأسها الذى لا يريد إلا أن يقع على صدرها وهمسن

في آذانها يرجونها الكلام وإجابة البك النيابة . وبعد ساعة بالتمام

حركت المصاصة شفيتها فاستبشرت النسوة وشجعنها رابات على

كتفها :

— أيوه . . . أيوه ردى علينا يا حبيبتي !

فأسرعت أصيح قرب أذنها وقد تصبب العرق منى :

— إسمك؟ إسمك إليه بقي؟ . . .

فأنت وزامت وقالت في صوت خافت مهدهج :

— إسمى . . . نبوية .

فكدت أشق ثيابي .

— مفهوم نبوية ! كويس خالص ! لكن نبوية إليه إسم  
« أبوك » إليه ! أنا في عرض ، أبوك ، ا نبوية إليه ؟ ولكني أخاطب  
وأتوسل إلى شبه جثة . فقد انحدر رأسها وسقط على صدرها من  
جديد . ولزمت الصمت لإلا من ذلك الأنين الخافت . وبلغ مني اليأس  
والضيق ، فصحت في النسوة صيحة داوية فأسرعن وأنهضنها مرة  
أخرى ومسحن صدغيها بالماء البارد وناجيتها بالكلام العذب إلى  
أن ظفرنا آخر الأمر باسمها كاملا ولكن بقي في الاستهارة عشرة  
أسئلة وإذا كان ذكر الإسم على بساطته قد اقتضى هذا المجهود ،  
فكيف بالباقي ؟ خصوصا السؤال الأخير : بأن الفترة بين تعاطي  
المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض ؟ مع وجوب ذكر تواريخ  
واضحة وساعات معينة كما تقول الملحوظة !! أي أن هذه المرأة التي  
لم تخرج اسمها من بين فكها إلا بعد أن كادت تخرج أرواحنا ستقول  
لنا عن الساعة والدقيقة بالضبط التي لاحظت فيها ظهور الأعراض  
أول ما لاحظت ؟ شيء جميل ؛ أنا مجنون أسأل هذه الأسئلة ؟  
أليس في عيني نظر ؟ ماذا تظن بعقلي هؤلاء النسوة إذا خالجنى طمع

في أن أتلقى من هذه الطريجة جواباً بالساعة والدقيقة عن الأعراض  
والفترة بين تعاطي المادة وظهور أول . . إلى آخر هذا الكلام  
المطبوع على استمارة صنعت فوق مكاتب العاصمة في صفاء وهدوء  
بال . بعيداً عن مناظر القىء والإسهال ١١ وأومات إلى الكاتب أن  
أقفل المحضر ، وأفهمته أن المصابة لم يمكن استحواها واكتفينا  
بأخذ عينات ، القىء والبراز وقص أظافر وجيوب المتهم . ثم عدنا  
إلى دار النيابة حيث ارتيمت على مقعدى تبعاً .

أغمضت عيني قليلاً ، ثم فحتها على صوت الباب يفتح وقد  
دخل منه مساعدى أصفر الوجه . فأفقت من خمولى في الحال  
وابتدرته :

— مالك ؟

— التشريح

— حضرت العملية ، والنتيجة ؟ ؟

— النتيجة أنى أنا . . .

وجلس على كرسى قريب ؛ فخدقت بنظري ملياً في وجهه .  
ففهمت كل شيء . إن هذا الشاب قد حدث له ما حدث لى يوم  
حضرت لأول مرة تشريح جثة آدمية . هذا الشاب الرقيق الذى  
خرج بالأمس من بين الكتب . تلك الكتب التى أرتنا وأفهمتنا  
أن الإنسان شىء عظيم ، إنه هو محور الكون ، وأنه المصطفى

المحفوظ دون بقية المخلوقات بعناية الخالق الأعظم ، وأنه السكان النوراني الروحاني الذي سوف يبعث ؛ هذا الإنسان لم يتبحر لكثير من الناس أن يطلعوا على تركيبه من الداخل ؛ فإذا ما اطلع أحدنا على ذلك سرت في نفسه صدمة يختلف تفسيرها باختلاف مزاج الشخص وطبيعته وثقافته ، وإني لن أنسى أبداً يوم وقعت للبرة الأولى على رأس جثة رجل أصيب في دماغه بعبارة ناري أطلق عن قرب فكسر الجمجمة وهتك الجدار الأيمن للأذن حتى برز جزء من جوهر المخ ؛ وحضر الطبيب للتشريح ، فقامت معه أشاهد مايفعل ، وغادرنا الغيظ الذي وقعت فيه الحادثة . وانتقلنا إلى دار الجنى عليه ؛ وهي دار قروية متواضعة ، وجيء بالقتيل يحمله أهله وقد لفوه في لحاف جديد ، بيوشه ، ومن حوله النسوة بعويلهن وصياحهن وطينهن يلطخن به وجوههن ، وكان معي مأمور نشيط أمر رجاله بإخلاء المكان إلا من رجال الحفظ والطبيب وحلاق الصحة ومعاونيه ، وأتوا « بطشتين » كبيرين وضعوهما تحت « دكة » عريضة من الخشب في صحن الدار ؛ ووضع الحلاق ومعاونوه الجثة فوق « الدكة » ، وخلعوا ملابس القتيل ، وكانت جديدة احتفالاً بعيد الفطر ؛ إذ وقعت الجريمة في اليوم الأخير من شهر رمضان ، كأنما أراد القاتل أن يسرع خشية أن يحل العيد وغريمه على قيد الحياة ، وحرصاً منه على أن تكون هدية العيد تلك الرصاصة في

رأس القليل ، ورغبة منه في أن يتغير نغمة أصوات العيد وأناشيده المتصاعدة من جوف هذه الدار ، وأعمل الطيب المشروط حالاً في رأس القليل وهو يملئ على الكاتب .

— ونزعنا الفروة ( يقصد فروة الرأس طبعاً ) .

وعندئذ علا صياح النسوة وكنّ قد تسلن وتسلقن سطح الدار والأسطح المجاورة « المعرشة ، بحطب القطن والذرة ، وسمعت بين أصواتهن المختلطة صوتاً رفيعاً حاراً مؤثراً أوجع قلبي يصيح : يا شجرة و « مضللانا ، يا بوياء !

وتلاه صوت آخر في مثل رفعه ولهيبه وقد امتزج بنشيج وبكاه مر :

ياللى كنت خارج بسحورك في بطنك يابه .

وتم نزع الفروة ، ووضع الطيب أصبعه في فتحة الجرح يسبر غوره ويعرف حدوده ، وأملئ الكاتب :

— جرح نارى طوله أربعة سنتيمتر ...

وحاول أن يعثر بأصبعه على الرصاصة فلم يستطع

فتناول منشاراً من المعدن من حقيبته وجعل ينشر الجمجمة من الجهة ليفتح الرأس فلم ينجح في نشرها لصلابتها فأخذ مطرقة صغيرة من بين أدواته وطفق يدق بها فوق المنشار كأنما يدق على علبة « سردين » وسمعت إحدى العجائز ورأت من فجوة السطح



ذلك الدق و « الهبد » في رأس رجل العائلة وعميد الدار فوضعت  
كفها على خدها وقالت منتهدة  
— اسم الله عليه !

هذه الكلمة هز تى . ووجدت لوقعها غرابة . إن تلك العجوز  
ما زالت تعتقد أن رجلهن هو رجلهن بشخصيته وآدميته ، أما أنا  
فمنذ لحظة قد بدأت أشك في ذلك .

وتم نزع الغطاء أو « القراعة » وظهر من تحته الغلاف الرقيق  
الذى فوق المخ مباشرة . فمزقه الطبيب بمشرطه ، وجعل يفحص  
ما حول الجراح وهو يملى :

— نزيف دموى شديد بأنسجة المخ . . .

وجعل يبحث بأصبعه عن الرصاصة فلم يجد شيئاً واستمر في  
البحث حول تلك المنطقة القريبة من الجرح فلم يعثر للرصاصة على  
أثر . أين ذهبت إذن ؟ وليس هنالك من فتحة أخرى يظن أن  
المقذوف خرج منها . ولم ييئس الطبيب . وقال لى باسمأ : إن  
المقذوف النارى يتخذ أحياناً خطوط سير عجيبة في جسم المصاب  
وأحياناً تدخل الرصاصة من البطن فلا يعثر عليها إلا في الفخذ  
قد يكون هذا معقولا . ولكن رصاصة تدخل من الرأس تستخرج  
من القدم ؟ هذا شغل « حواة » ولا أصدق أن الرصاصة لها كل هذه  
المقدرة واستاء الطبيب أخيراً فصاح :

— وعلى إيه؟ أدى مخ الرجل بحاله . . .

وأخرج بكلتا يديه كل ما في الجمجمة من مخ حتى أخلاها فأصبحت مثل « السلطانية ، النظيفة وقسم هذا المخ أقساماً أربعة أعطى كل من معاونه قسماً وكلفهم أن يبحثوا عن المقدوف بحثاً جيداً فجعلوا «يلغوصون» بأصابعهم في هذه المادة التي يعزى إليها كل نبوغ الإنسانية ، حتى صيروها شبه صائلة كالمهلبية ؟  
هذا هو مخ الإنسان !

قلت ذلك همساً لنفسي : وقد بدأ الروع الذي أخذني أول الأمر يزول عني شيئاً فشيئاً . وتصلبت أعصابي وهمد إحساسي وتيقظ في نفسي حب استطلاع ورغبة في أن يفتح أمامي كل هذا الجسم المسجى لأنظر فيه . ومادمت قد رأيت المخ هكذا فلنر القلب ولنر الكبد ولنر الأحشاء . لم يعد هذا الرجل في نظري رجلاً ، إنما هو ساعة حائط كبيرة ممددة أريد أن أفنحها لأشاهد آلاتها وتروسها وعجلاتها وأجراسها .

ولم يجد الرجال شيئاً كذلك بعد البحث الطويل . إنه لسوء حظ. كما قال الطبيب ، ولكننا مطالبون بالنتيجة على أية حال . ها هو ذا القليل ولا بد أن تكون الرصاصة فيه . وشمر الطبيب عن ساعد الجد والضيق وأعمل المشرط في ذلك الجسد ، وأنا من خلفه أشاهد وأقول :

— اقطع ! أشرط ! ...

وأخذتني حمى غريبة وفقدت كل شعور إنساني فجعلت أقول للطبيب : أرني رثتيه ، أرني أمعائه ، أرني الطحال الخ الخ . ولم يتردد الطبيب وشرط الصدر حتى أسفل البطن وأخرج القلب ثم الأمعاء وأملئ :

— ووجدنا القلب سليماً ، والأمعاء بها طعام مهضوم ، ولم نعثر مع كل ذلك على شيء ففكرنا ملياً . فاتضح لنا أن الرصاصة قد تكون سقطت من نفس الجرح لا تساعه وتقلع أو سقطت بسقوطه على الأرض . وفرغنا من العمل وانصرفنا وأنا أعجب لما حدث في نفسي من انقلاب . أنا الرقيق الحس أرى الجزر والتقطيع بل وأمر به ولا أرتعد ! ثم أى خيبة أمل ! لقد كنت أحسب الإنسان أعظم من ذلك ! كلا ، لا ينبغي أن نرى أنفسنا من الداخل إن صورة ما رأيت لا يمكن أن تزول من مخيلتي . ولا ريب أن تلك المناظر قد أحدثت في نفس مساعدي أحداثاً . وأردت أن أسأله في ذلك . ولكن الباب فتح وظهر حاجبي ومعه إشارة تليفونية فقلت :

— اللهم خيراً !

وتناولت الإشارة . وماكدت ألقى عليها نظرة حتى صحت :

— البنت ريم ! ؟ ..

فأسرع مساعدي متلهفياً :

— مالها؟

— وجدوا جثتها في الرياح قبلي البلد؟

— وماتت؟

— قلت لك وجدوا جثتها ، خذ أقرأ الإشارة !

فأخذ المساعد الورقة وجعل يقرأ بعينه حتى وصل إلى آخر  
عبارة وهي . . . ويحتمل أن يكون سبب الوفاة أسفكسيا الغرق ،  
وقفت عيناه عليها لحظة من التأثر ، وكنت أنا أشد منه حزناً على  
انطفاء حياة هذا الشيء الجميل بهذه السرعة .

وأطرت قليلاً أفكر في سوء حظنا ، لامن حيث العمل ،  
ولا لأن ريم مفتاح من مفاتيح القضية ، بل لأنها كانت صورة  
بديعة هزت نفوسنا جميعاً عاقلنا ومجنوننا ، ومخلوقاً حلواً منحنا  
أويقات حلوة ولحظات مشرقة ، ونسيماً عليلاً هب على صحراء  
حياتنا العاطفيه المجذبة في هذا الريف القفر .

واستيقظت من تفكيري ، ورفعت رأسي ومددت يدي إلى  
مساعدى أسترد الإشارة وأخط عليها العبارة المألوفة : « نأمر  
بتشريح الجثة » ، ولجأة تنهت إلى فظاعه هذه العبارة ، نعم لأول مرة  
أجدها فظيعة ، طالما شرحنا جثثاً ، فليكن ، وإني لعلى استعداد  
لتشريح نصف أهالى هذه البلدة . أما هذه الفتاة . . . أما هذا الجمال  
فخرام أن نمزقه لنرى ما بداخله ، ولمح مساعدى نص الإشارة  
بنظره الحاد فصاح :

— أظن ناوى تقولى أحضر التشریح !

— ومن غير حضرتك ؟

— مستحيل ، أنا أولاً كفايه على تشریح الصبح ! حرام !

أقعد طول النهار أشاهد فتح جثث ! أنا مساعد نيابة مش مساعد  
حانوتى ! ثانياً البنز دى بنوع خصوصى ...

فتأملت قوله ، وعذرتة ، وأطرقت لحظة ثم قلت :

لك حق ، ريم بنوع خصوصى ! من له قلب يحضر .. أنا

لو دفعوا لى عشرين جنيهاً . أهات الإشارة نشطب على التشریح  
ونأمر بالدفن ونخلص !

والواقع أن فى أيدينا أن نفعل ذلك بدون أن نتعرض للنقد

والمسئولية فالطبيب الذى كشف عن الجثة عقب استخراجها من

النهر قرر أن الوفاة من اسفكسيا الغرق ، أى أنه لم يجد آثاراً

مشتبهاً فيها تدل على أن الوفاة جنائية ، فإجراء التشریح فى هذه الحالة

دقة لا مبرر لها ، آه لرجال الفقه والقانون أصحاب الغرض ! إنهم

يستطيعون أن يتصرفوا على كل وجه تصرفاً منطقياً مقبولاً !

وما كدت أمسك بالقلم لأشطب الأمر السابق حتى سمعنا صياحاً

فى الطريق ، فقمنا إلى النافذة . فإذا بنا نرى الشيخ عصفور يجرى

فى الطريق ، عارى الرأس بدون عوده الأخضر ، والصبية والغلمان

وجمع من الأهالى خلفه وهو كالجنون :

ورمش عنها ياناس  
يفرش على الميه  
واحده يياضى شفتشى  
والثانية بلطية  
والثالثه من بدعها  
غرقها فى الميه ...

وصار يردد ذلك بصوت تارة كالعويل وتارة كالزئير ، وتارة  
فى حركات كحركات خطباء المساجد وهو يمشى أحياناً ويرقص  
أحياناً ويجرى فى كل جهة حتى اختفى عن أنظارنا ، فلبثنا عند  
النافذة صامتين ماخوذين ، ثم انتهنا بعد لحظة وعدنا حيث كنا  
من الحجرة ونحن نقول كمن يخاطب نفسه :

— مسكين !

وعدت إلى الإشارة ، وأمسكت بالقلم من جديد ، ولكن  
الشك والقلق خالجانى .

— سمعته لما قال : « غرقها فى الميه ، من اللى غرقها ؟ !  
فقال المساعد :

— دى « هلوسة » مجانين ! حانفتح تحقيق بناء على « خطرقة » ،  
رجل مخبول فى الشارع ؟ ! أظن الأحسن ندفن البنت وننتهى !  
فحيا قوله ترددى ، وضغطت على القلم ضغط العزم والافتناع  
وخططت أمر الدفن وأنا أقول :

— صدقت ، أنا حتى انصدت عن القضية وأصحابها !!

٢٢ أكتوبر . . .

استيقظت اليوم متأخراً . فقد سهرت أكثر الليل في التهام الأوراق المتأخرة . إذ بعد أسبوع تبدأ السنة القضائية الجديدة . ومعنى هذا أنه لا ينبغي أن تبقى عندي قضية واحدة لم يتم التصرف فيها من قضايا العام المنصرم . ومعنى هذا أيضاً أنه يجب أن احبس نفسى طول هذا الأسبوع حتى أنظر في المتأخر من أكداس « الشكاوى » ، التى فاضت بها خزائنى . . آه من هذه الشكاوى ! إنها أكثر عدداً من ذلك ، البق ، الزاحف جيوشاً على حائط دار النيابة الرطب المهتمم ! يخيل إلى أن الشكاوى لا تنزل على رأسى كالوابل إلا أيام الأسواق ، كأن الفلاح إنما يخرج إلى سوق الخميس من كل أسبوع يبيع كيلة ذرة ليشتري قليلاً من السكر والشاى ويملا زجاجة « السيرج » ويستكتب أحد الكتبة العمومية « بلاغاً » أو « عريضة » ضد مأذون الناحية أو العمدة أو وكيل شيخ الحفر . واهل هذا أصبح بنداً ثابتاً فى ميزانية كل خارج إلى السوق من هؤلاء الفلاحين . لست أدرى لذلك من سبب . أهو الظلم حقاً ! أم هو داء الشكاوى استوطن دم الفلاح على مدى أحقاب من الجور مرت به حقيقة اعلى أى حال ، ماذنبى أنا أجرع ما فى هذه الأوراق من سخف . يظهر أن حضور جلسات المحاكم وضبط قضايا التلبس فى النهار ، وقيدوارد الجنح والمخالفات فى المساء ، والانتقال لتحقيق وقائع الخنايات

بالبلبل، كل هذا لا يمكن وكيل النيابة في الأرياف، فهو مازال يجد وقتاً يتنفس فيه . . . فلتسد عليه إذن مسالك الهواء بأكوام الأوراق التافهة الآتية من المركز باسم « الشكاوى » و « العوارض » و « الأحوال »، ومعنى هذا أيضاً أني أنا الشخص الضعيف الجسم والبنية الدقيق الحس والشعور الذي يتوق إلى نصف الساعة يفرغ فيها إلى مطالعة كتاب جميل، ينبغي لي أن أقرأ أيضاً ما جرى بين « ست الدار »، وجارتها « قطايف »، من تبادل « الرده » والسباب وما تلقاه المركز من بلاغات فقد الاختتام و « محاضر » البحث الجاري عن حشش هرب من أمام الباب، وإصابة قدم طفل داس على قطعة زجاج، وسقوط فرع جميزة على رأس كبش الحاج هباب إلى والله لا عذر ذلك النائب في الصعيد الذي قيل إنه كان يعبر النيل في قارب للوصول إلى مقر عمله وكان معه حمل من هذه « الشكاوى »، حار في أمره فأوماً إلى صاحب القارب فقال بقاربه على أحد جنبيه ميلاً أسقط « الشكاوى »، في الماء ويزيد في بلائي أكثر من هذا الحاج . عبد المقصود أفندي رئيس القلم الجنائي فهو المنوط بأرسال « كشوف » القضايا في مواعيدها إلى النائب العام ووزارة الحفانية . هذا الرجل لا أرى له عملاً عندي غير التنقل بين الحجرات حافلاً في يده ورقة يأمر هنا وينهى هناك حتى عملية « التنفيذ » التي من نصيبه قد ألقى بعبئها على غيره من مرؤوسيه واكتفى هو بمهمة .



الصباح في المكتبة والحجاب . وهو أول من ينصرف من الموظفين  
واضعاً على طرف أنفه عويناته الذهبية ، يرسل من خلالها نظرات  
صريحة إلى المجتمعين في أروفة دار النيابة من وكلاء المحامين وأرباب  
القضايا كأنما يستحهم على الوقوف له ولا حديث عنده إلا ذكر  
علاقاته وصلاته بكبار الموظفين ، يقول ذلك في زهو وانتفاخ .  
ولطالما طلبت إليه حساباً عن عمله فيجيني دائماً :

— أنا والله الحمد لا أميل إلى الآبهة ولا إلى الفخفة !

تراني سألته في ذلك ؟ لم يحدث قط . يخيل إلى أن من الناس من  
يلق الكلمة يدفع بها عن نفسه فإذا فيها الاتهام الصارح ولعل كل  
متهم يحمل في طيات كلامه دليل لإجرامه كما يحمل المريض في دمه  
جراثيم دائه ؟

لا بد إذن من العمل المضني حتى تختم السنة القضائية على خير .  
وقد أمرت بإغلاق أبوابي على حتى أنفرد لهذه الملفات أتصرف فيها  
باللين وبالشمال ، ومضيت أعمل وأنا أقول : « خذ من التل يخل ، ا  
ولكن الذي وضع هذا المثل كان يقصد بالتل النقود والذهب  
أما أوراق «الشكاوى» فهي تل دائم النبو . لا يخل ولا يزول .

وهل تنقطع للإنسان «شكوى» على هذه الأرض مادام هو  
إنساناً ؟ ا ونسيت نفسي في العمل ، فلم أسمع طرفة خفيفة قيل إنها  
وقعت على الباب . ولكني رأيت رجلاً أتيقأ في وسط الحجره يتنسم

لى وخلفه حاجب يحمل حقيبتين . عجباً هذا زميلى وكيل نيابة  
طنطا ! ماذا أتى به ؟ وما هذه الحقايب ؟ ولم يترك زميلى وقتاً  
للتساؤل . فقد أشار إلى حاجبه أن يضع الحقيبتين على الأرض  
وينصرف وما إن صرنا وحدثنا حتى جثا على قدميه أمامى فى حركة  
تمثيلية وقال :

- أنا وقعت من السما وأنت تلتقتنى !

فنظرت إلى يدى الهزيلتين ثم إلى جسمه الممتلئ .

- أنا تلتقتك ؟ ونزلت ، صاغ ، سليم !

- اسمع ! الموضوع جد أنت رجل معروف بيننا جميعاً أنك

صاحب همة ومروءة و . . .

هنا لعب فى « عبي الفار » وأدركت أن هذا الزميل قد ترك مقر

عمله طنطا فى هذا الوقت العصيب وقت مولد السيد البدوى وما يتبعه

من ازدحام المدينة بأفواج الوافدين وكثيرة الحوادث والوقائع التى

تصحب عادة كل مولد وكل ازدحام . ترك ذلك وأتى إلى يطلب ولا شك

إلى همتى ومررتى معونة كبيرة ! ترى مانوع هذه المعونة ؟ وخاهرنى

قلق ، وأردت أن أعرف سريعاً ما يريد منى حتى أطمئن فقلت :

- أنا فى خدمتك !

فما كاد يسمع هذه الكلمة المشجعة حتى قام إلى رأسى يقبله

ويقول فى صوت كصوت الشحاذين ، :

ربنا يخليك ويبيحك ويمد في عمرك و...  
ثم تركنى وأسرع إلى حقائبه وقال لى :  
— تسمع ؟

فقلت له وقد حمدت له في نفسى ذوقه ومراعاته اللياقة في الزيارة :  
— والله ما كان فيه لزوم تكلف نفسك هدية .

وفتح إحدى الحقيبتين وأنا أتوقع أن أرى فيها على الأقل حصا  
من حمص السيد البدوى وفى الأخرى حلاوة المولد . . ولكنه  
أخرج أحمالا من أوراق ، الشكاوى ، ووضعها على مكبى وهو  
يقول فى تواضع :

— هديتنا على قدنا :

فنظرت إلى الأوراق فى روع وتمتمت :

— أعوذ بالله !

وجعل هذا الضيف يخرج الأكداس تلو الأكداس وهو يقول :

— النبى قبل الهدية !

فلم أجد ما أقول لهذا الضيف الذى يصر على أن يسمى هذه  
السخرة « هدية » ، ولأنت فى نفسى قولهم إن « النيابة لا تتجزأ » ،  
هذا المبدأ الذى نسير عليه ؛ وهذا النظام الذى يفرض التضامن بين  
كل أعضاء النيابة ، ويعطى الحق لوكيل نيابة أسوان أن يتصرف فى  
قضايا وكيل نيابة الإسكندرية دون أن يبطل تصرفه اختصاص

مكانى أوزمنى . لعنت ذلك ولعنت الضيف ولعنت نفسى إذ أن  
لى حقيقة من سوء حظى صينياً بين زملائى بأنى من أصحاب الهمم  
خصوصاً فى الشكاوى الإدارية وسرعة التصرف فيها . وقد نقل  
عنى الكثير من إخوانى أعضاء النيابة طريقى فى قراءة الشكاوى .  
فهم يقولون لى أقرأ الشكوى من آخرها لا من أولها وهذا  
صحيح فأنا لست بمجنوناً حتى أقرأ الأوراق من أولها كما يقرأ  
الناس والعقلاء ! لو فعلت ذلك لما انتهيت . ولكنى أضرب صفحاً  
عن الديباجة ولأفيتها من . أتم ياملاً بالعدل ويانصير الحق وياميد  
دولة الظلم وبامحق ... الخ الخ ، وأنظر فى الحال إلى السطر الأخير  
ففيه عادة لب الموضوع . وهذا اللب أيضاً قليلاً أجده لبا ، وكثيراً  
ما يجرى فيه قلبى بالكندس أى « بالحفظ » فى سرعة وجرأة وهمة  
أطمعت فى الزملاء والموروطين الغارقين فى بحار هذا الواعش ،  
ولكنى اليوم آخر من يعين الناس . لى أنا نفسى فى حاجة إلى المعونة .  
وإن هبوط هذا الضيف ، على كانهبط المصيبة لأمر شاق على  
النفس . ولم أتمالك ، وتجهمت للشكاوى الخارجة من الحقائق  
وقلت فى سخرية المغيظ :

— ياسلام ، ياسلام على حمص المولد ! حاجة تشرح القلب صحيح !

فقال الضيف وهو ينفذ يديه من آخر ملف .

— كان غرضى أجيب لك شوية حلاوة . . .

فقطاعته صائحاً مرتاءاً :

— من الصنف ده ١٩ !

فاستمر في قوله باسمياً :

— ولكن والله غاب عن فكري في آخر لحظة . . .

— الحمد لله مات سليمة !

— فضحك الزميل المحترم وجاءت القهوة فشرب هنيئاً، ثم قام

فدار دورة في الحجره واقترب من النافذة كعادته التي أعرفها عنه  
وأطلق بصره فيها حولنا من منازل قليلة وغمز بعينه .

— في البيت ده بنت حلوة !

فبادرت إليه وجذبتة من ذراعه بعيداً وأنا أقول له :

كنت فاكرك عقلت وبطلت الهلس !

فقال باسمياً وهو يعود إلى الحجره ويجلس على مقعد :

— أبطل إزاي ، البصبصة ، في دمي !

وجعل يذكرني بأيام «ديروط» حيث كنا نعمل معاً في نيابتها .

وطلب مني سيجارة طفق يدخنها ويقول :

— فاكرك في ديروط لما كنا نقف في الشبايبك نبحت بعيدنا

فوق الأسطح عن قيص حريمي مشغول « بالتنته » ، لأجل بس

نظمتين على وجود صنف النسوان في البلد !

الواقع أنها بلاد قريية من الفطرة الوحشية ! هذا الوجه القبلي

من مصر شيء مخيف لساكن الوجه البحرى إن المرأة هناك شبح لا يرى ولا ينبغي أن يرى . وهى مخلوق جاف لا فرق بينها هناك وبين الرجل كلاهما شيء . لا أثر للرقعة فيه وكلاهما فى الجسم والطبع والروح كنتك الأرض السوداء . اتى يعيشان عليها وقد جف عنها النيل فى زمن التحريق ! آدميون قد جف عن تركيبهم ذلك الماء الذى فيه سر الآدميين .

ونفخ صاحبي الدخان من أنفه وفه ثم استطرد :

— لعنة الله على دى بلد ! أنا أراهن أن تسعة أعشار أهالى ديروط لو تكشف رءوسهم تلقى معمول لهم جميعاً عمليات « طرَبنة » من ضربهم فى بعض بالنبايت .

فصادقت برأسى على قوله ثم زدت :

— وأنبوب ؟

— ألعن !

قالها فى إشارة من يده أضحكتنى وذكرتنى بشيء قرأته عن هذه البلدة : إحصائية صدرت فى أوربا أو أمريكا ( لست أذكر على التحقيق ) غرضها بيان الإجرام فى العالم . ورد فيها أن « شيكا جو » أكثر بلاد الأرض فى عدد جرائمها ، وتليها مباشرة « أنبوب » وبعدهما بقية مدن العالم الشهيرة . وقد حسبت وقتئذ أن « أنبوب » هذه مدينة فى أمريكا . لولا ملحوظة فى هامش الاحصائية ذكرت

أنها من بلاد الوجه القبلي بالقطر المصري . دهشت عند ذلك أن تكون لهذه البلدة الصغيرة هذا المقام العظيم بين مدن الدنيا الشهيرة ، وإن كان هذا المقام في عالم الاجرام ١١ . « شيكاجو ، وأبنوب ، قطبا الغريزة السفلى على هذه الأرض . الأولى إجرام الحضارة ! والثانية إجرام البداوة كل له طابعه ومميزاته : إجرام الحضارة قد ارتدى هو أيضاً ثوب الحضارة بأسلحتها وأغراضها وأسبابها ! هنالك الجريمة المتحضرة تخرج في سيارتها المصفحة حاملة « المسدسات ، و « المتراليوزات ، و « المفترقات ، تهجم على أضخم « البنوك ، ويوت المال ثم تعود إلى مكمنها بثروات طائلة من الجنهات ! وهنا الجريمة الفطرية تخرج متدثرة في عباءتها حاملة هراوتها أو فأسها أو بندقيتها لتسفك دم رجل ضعيف انتقاماً لعرض أهين في نظر التقاليد والعادات هنالك الثروة والمال ، وهنا التقاليد والعادات . هذا هو الفرق بين الحضارة والفطرة بين ما يشغل بال الرجل المتحضر وما يشغل بال الرجل المتأخر ! نعم إن الشر هو دائماً الشر . ولكن الشر الناتج عن سبب كبير لأجدر بالتقدير من شر نشأ عن سبب تافه حقير ! إن الحضارة العظيمة لاتزيل الشر ولاتمحو الجريمة ، ولكنها توجد الشر العظيم والجريمة العظيمة !

والنفت إلى زميلي المطرق وقلت له :

- أنا روحى طلعت خلاص! زهقت من حاجة اسمها أرياف!
- زهقت من أصناف ، اللبد ، !
- إزهق على كيفك !
- أنا اشتقت لمصر ! نسيت شكل عاصمة بلادى أحب ياناس
- أغير نوع الجريمة ؛ وأشتغل مع مجرمين لابسين سترة وبنطلون !
- حركة التنقلات فى نوفمبر .
- أظن على الدور أنتقل لمصر
- النقل لمصر مش بالدور يا حبيبي عندك واسطة ؟
- لا .
- حاتعيش وتموت فى الأرياف .
- رإخواننا اللى قاعدين متمنعين فى مصر بقى لهم سنين ؟
- تشملهم كذلك حركة التنقلات لكن على الوجه المفهوم
- وعلى الطريقة المعتادة : وكييل نيابة الموسكى ينقل إلى نيابة الأزبكية
- ووكيل شبرا إلى نيابة الخليفة . ووكيل السيدة زينب إلى كلية مصر ،
- يعنى تنقلات مع مراعاة عدم خروجهم من « الجنة » أى العاصمة
- ومع ذلك نجد حضراتهم غير راضين . لأن بعضهم يقول لك :
- « شبرا ياسلام شبرا بعيدة جداً جداً عن بيتى فى الزمالك ، والآخر
- يقول لك : « ازاي أوح نيابة السيدة ! حتى ديموقراطى قوى ! ،
- أما حضرتك وحضرتى ، فأنت إن شاء الله من هنا إلى « القشن » من



غير كلام . وأنا من طنطا إلى « طها ، أو « منفلوط ، من غير كلام .  
وإن فتح واحد منا فمه بالشكوى أو الاحتجاج هبوا فينا : إيه دلع  
أعضاء النيابة ده ! تفضلوا روحوا زيا باتكم بلا دلع !!

فأطرقت طويلا في حزن وغم ؛ ولم أجد في يدي غير التمسك  
بالصبر حتى لا أضيف على بلأني بلاء وقلت متنهداً :

— أمرنا لله ! لنا رب ! لكن ده شيء يصد النفس عن الشغل ...  
لفظت ذلك وقد وقعت عيني على أكوام الأوراق التي لا بد من  
إنجاز التصرف فيها فأحسست أن رغبتى فى العمل قد فترت . فقال  
صديقى :

— الشغل .. هو آخر شىء يهم أسيادنا الرؤساء الكبار !  
المحسوبة أولاً ، ومصلحة العمل أخيراً ، وكون نفس حضرتك  
تتسد أو تنفتح للشغل مسألة غير مفهومة بالمرّة ولا مهمة بالمرّة عند  
أسيادنا الكبار ؟

ونظر الزميل فى ساعته ثم نهض سريعاً مستأذناً فأمسكت به فى  
لحفة ، فى وجودنا معا وتقليب ذكرياتنا بعض الراحة والعزاء :

— أقعد ! أنت رايح تنغدى عندى النهارده !

— مستحيل نيابتي فاضية ووقت مولد . أرجوك تسامحنى ...  
وشكر لى ومد لى يده وودعنى بسرعة وهو يقول مشيراً إلى  
ملفات الشكاوى التي جاء بها :

على الله نفسك تنفتح على الكرم ورقة الهدية ... ويبقى لك  
عندى المرة الجاية الحلاوة . حلاوة بصحيح : حمصية وسمسمية  
وبالجوز واللوز والفسق و...

- طيب رح بقی ، ریقی جری مقدماً ...

وشيعته باسماء إلى باب حجرتي حتى اختفي . فرجعت إلى ما كنت  
فيه ولكن في شيء من التثاقل والضيق والكتابة ، وألقيت نظرة  
أخرى على الشكاوى ، ورأيت أن أمضي في عملي وأن لا أضيع  
الوقت في تبرم لافائدة منه ، لا يشعر به أحد ولا يراه أحد غير  
تلك الحيطان الأربعة التي تحبس روعي وأنفاسي . وأمسكت بالقلم .  
وتناولت من الكوم ملفاً وفتحته . وقرأت : « ياملأ العدل .. »  
فما تمالكت أن ضحكت بصوت مرتفع ضحكة مرة أنا ملاذ العدل ؟  
أين هو العدل ؟ إني لا أعرفه ولم أراه . لأن أحداً لم يعطنيه إنهم  
يطلبون إلى أن أنظر في شكاوى الناس ولا يتنازلون هم إلى النظر  
في شكاوى وشكاوى المئات من زملائي وأجريت القلم في الأوراق  
أوسعها « حفظاً » ، ودخل على عبد المقصود أفندي يحمل ملفات  
ضحمة فقلت مرتاعاً :

- إليه كل ده ؟

- الجنح الباقية على التصرف ..

ثم التفت خلفه ونادى الحاجب :

— هات الجنائيات يا جدد !

ونظر إلى قائلاً :

— حان عمل إيه في الجنائيات الباقية . . .

ووضع أمامي ملفات قرأت على غلاف أحدها قضية « قمر الدولة علوان » . فتذكرت أن الفاعل في هذه القضية لم يعرف . لم يعرف ، طبعاً لم يعرف ولن يعرف وكيف يراد منا أن نعرف متها في قضية غامضة كهذه القضية وكل من المأمور والبوليس « ملبوخ » من رأسه إلى قدمه في تزييف الانتخابات ، وأنا « ملبوخ » في قراءة شكاوى وجنح ومخالفات وحضور جلسات وسع لو أن لدينا « بوليس سرى » على النظام الحديث ، و « قاضي تحقيق ينقطع لقضايا الجنائيات كما هو الحال في أوروبا والعالم المنحضر ! إنهم هناك ينظرون إلى أرواح الناس بعين الجدد . أما هنا فلا أحد يأخذ ذلك على سبيل الجدد . وإن الأموال لتنفق هنا بسخاء في النافه من الأمور ، وأما إذا طلبت لإقامة العدل أو تحسين حال الشعب فإنها تصبح عزيزة شحيحة تقبض عليها الأكف المرتجفة كأنها ستلقى في البحر هباء . ذلك أن العدل ، و « الشعب » . الخ الخ . كلمات لم يزل معناها غامضاً عن العقول في هذا البلد كلمات كل مهمتها أن تكتب على الورق وتلقى في الخطب كغيرها من الألفاظ والصفات المعنوية التي لا يحسن لها وجود حقيقي فلماذا ينتظر مني أنا أن آخذ على سبيل الجدد روح « سى قمر الدولة

علوان ؟ ان هذا المجنى عليه قد مات وانتهى مثل غيره من مئات  
المجنى عليهم في هذا المركز والمراكز الأخرى في القطر، ذهب دمهم  
جميعاً أرخص من المداد الذي حبرت به محاضر قضاياهم ، وانتهى  
ذكرهم عندنا « رسمياً » ، بذلك الإجراء الأخير البسيط : « تحفظ  
القضية لعدم معرفة الفاعل ويكتب للمركز باستمرار البحث  
والتحري ، فيجيب المركز بعبارة مألوقة محفوظة يحررها كاتب  
الضبط في حركة آلية وهو يقضم « شرش جزر » : جارين البحث  
والتحري . . . » ، وهي كلمة الوداع التي تقربها القضية نهائياً . لقد  
كان في قضية قمر الدبلة « قمر ، مضى ، ميز في أعيننا هذه القضية عن  
غيرها وحبب إلينا العمل والجهد في سبيلها . ولقد اختفى هذا  
القمر إلى الأبد وترك القضية ومحققها في الظلام ! بل إنه بذهابه  
قد زال عنها ذلك لاعتبار الخاص فأصبحت قضية عادية كمئات القضايا  
التي لا يعيننا من أمر أشخاصها شيء ، وللقضية أي لذلك « الملف » ،  
المادى من الورق المكتوب « شخصية » ، قائمة بذاتها في نظر رجال  
العدل . وإن ما يعنى جهاتنا الرئيسية هو ذلك « الملف » وسرعة  
التصرف فيه . وإنه لن يعيننا شيء ، إذا حفظنا القضية ، ولكن  
العيب كل العيب أن تظل هذه القضية باقية قيد الصترف ويثبت  
ذلك في الكشوف المرسله إلى النائب العام والوزارة آخر السنة  
القضائية . أي عار عند ذلك وأي إهمال ينسبان إلى وكيل النيابة ؟

وأى مكاتبات مستعجلة تسقط على رأسه من جميع الجهات عن سبب بقاء هذه القضية قيد التصرف؟ فإذا أجب بأنه لم يستوف بعد أبحاثه فيها للوصول إلى معرفة الفاعل وأنه موصل بحثه ومصر عليه لا يعتبر ذلك عذراً، وسفه زملاؤه وحسبوه « غشياً » ونصحوه بأن « يحفظ » القضية « مؤقتاً » حتى تعتبر « متصرفاً فيها » فالجهات العليا يهملها ويطمئنها « التصرف » في القضايا أى « نقض » اليد والفراغ منها على أى صورة وعلى أى وجه، حتى تستطيع تلك الجهات أن تدون فى الإحصائيات. وتقع فى القطر هذا العام عدد كذا جنائيات تم التصرف فى عدد كذا منها... الخ. . وكلما كان عدد القضايا التى تم فيها التصرف كبيراً كان ذلك دليلاً ناصعاً على نشاط رجال العدل وغيرتهم على استتباب الأمن وحسن سير الدولاب الحكومى !!

وأشار عبدالمقصود أفندى إلى الملفات وقال :

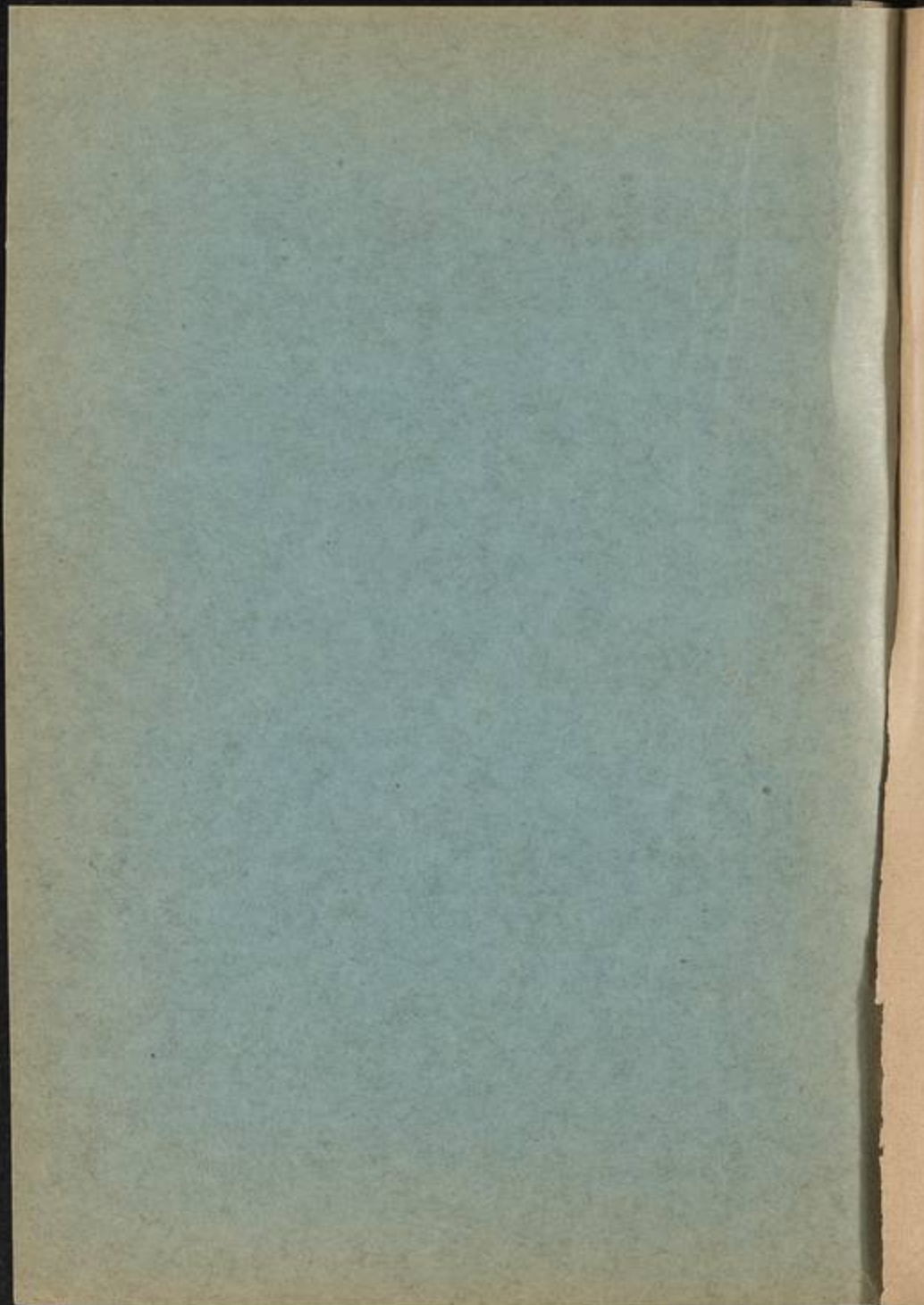
— قبل كل شىء . يا سعادة البك تصرف لنا فى الكم جنائية الباقين لأجل أسدد كشف الجنائيات وأصدره للباشا النائب والوزارة .  
— بس كده ؟ حاضر !

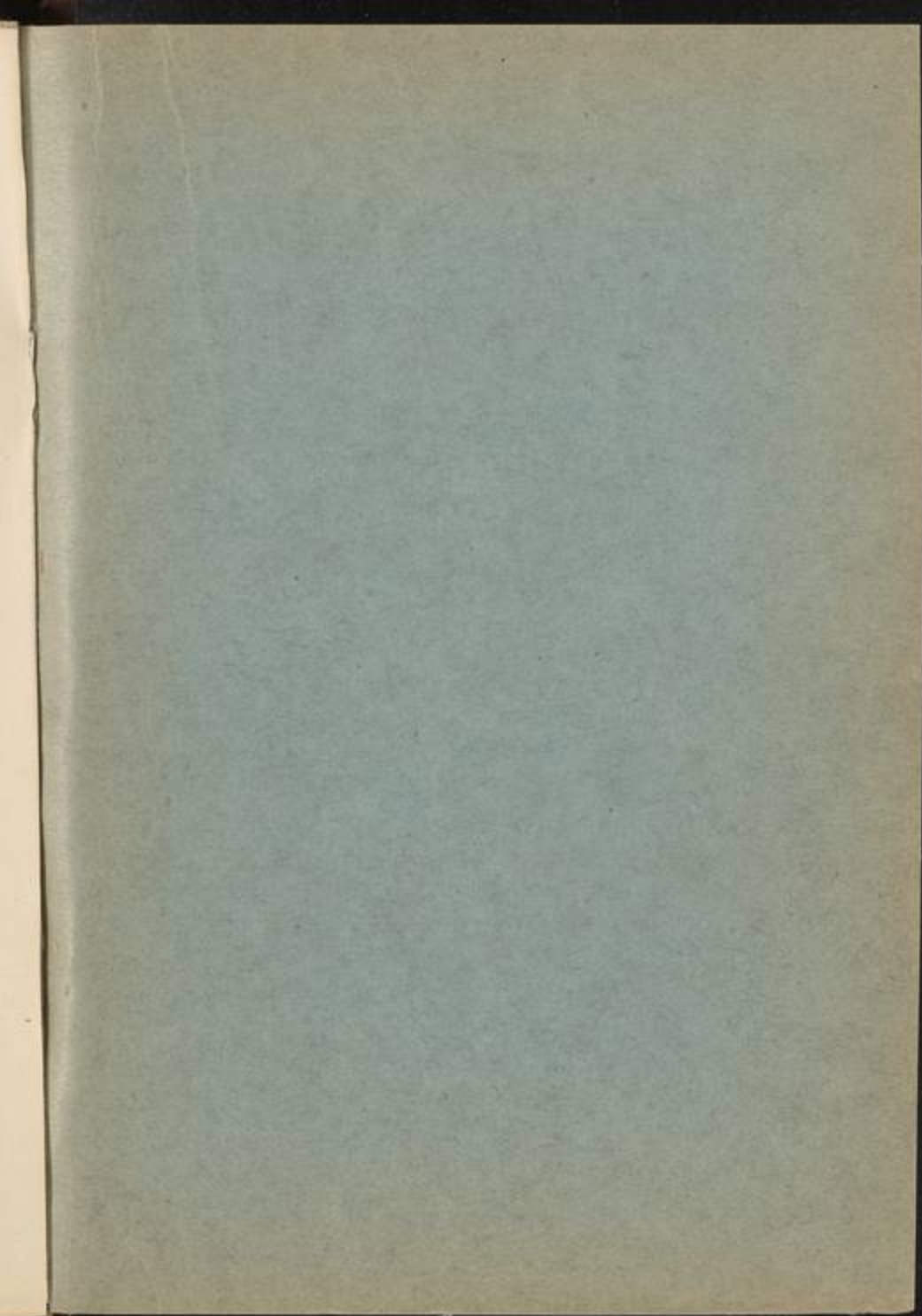
وغمست القلم فى المداد وتناولت القضية الأولى وهى قضية « قمر الدولة » :

— طالب تصرف ، خد تصرف !

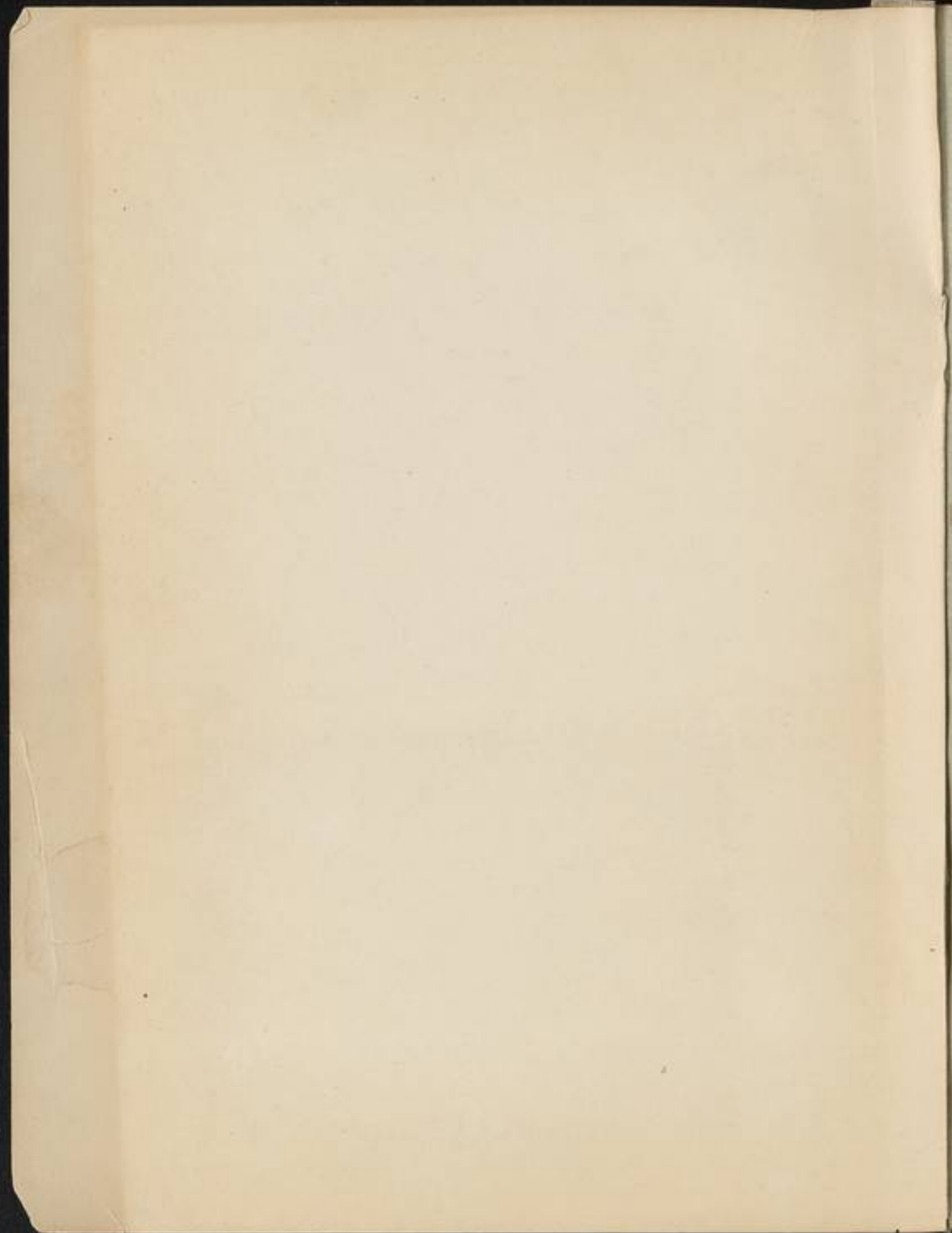
ثم كتبت في ذيل المحضر الإشارة المعهودة :  
« تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل . . . الخ ، وسمجت  
الجنايات ، الأخرى وفعلت بها مثل ذلك وناولتها رئيس القلم  
الجنائى وأنا أقول له في نبرة خرجت ساخرة مريرة على الرغم منى :  
— مبسوط ! أرحنا خلاص سددنا كشف الجبايات !

انتهى











893.7HL27

Z4

067 363 X3

BOUND

JUN 27 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58870407

893.7H127 Z4

Yawmiyat nab fi al-

893.7H127 - Z4